دروسٌ عقديَّةٌ

مستفادةٌ من الحجِّ

بقلم:

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار ابن عفان
للنشر والتوزيع

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
عبد الرزاق ، بن عبد المحسن البدر
دروس عقدية مستفادة من الحج - الخبر.
١١٢ص ؛ ١٢×١٧سم
ردمك : ×-٠٤-٦٥٨-٩٩٦٠
١- الحج
أ- العنوان
ديوي ٥ ، ٢٥٢ ١٩/٣٥٣٠

رقم الإيداع : ١٩/٣٥٣٠
ردمك : ×-٠٤-٦٥٨-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

دار ابن عفان
للنشر والتوزيع

القاهرة - الجيزة - ت : ٣٢٥٥٨٢٠ المحمول : ٠١٠١٥٨٣٦٢٦
ص.ب : ٨ بين السرايات
جمهورية مصر العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم فضيلة الشيخ: صالح بن فوزان ابن عبد الله الفوزان

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فقد اطَّلعتُ على نُبذة مختصرةٍ بعنوان: **دروس عقدية مستفادة من الحج** ـ بقلم الدكتور الشيخ: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، فألفيتُها نبذة مفيدة، تشتمل على دروس قيِّمة في العقيدة تُستفاد من مناسك الحج ـ وهكذا جميع العبادات في الإسلام هي قائمة على التوحيد ـ ولكن الحج بصفة خاصة يَجتمع له العالَم الإسلامي من أقطار الأرض في بلد الله الحرام يتلقون

تعاليم المناسك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهو بمثابة دورة تعليمية يرجعون بعدها إلى بلادهم وقد صحَّحوا كثيراً من المفاهيم الخاطئة التي كانوا عليها، فما أعظم هذا الحج وقد قال الله تعالى فيه لِخَليلِه إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ**﴾، وإنَّه واجبٌ على العلماء أن يُبيِّنوا تلك المنافع ويشرحوها للناس حتى يستفيدوا من حجِّهم، وفي هذه النبذة المشار إليها مشاركةٌ في القيام بهذا الواجب العظيم ـ جزى الله مؤلِّفَها الشيخ عبد الرزاق خيرَ الجزاء ـ ونفع بجهوده التي بذلها فيها وفي غيرها.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه.

كتبه:

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

٦ / ٨ / ١٤٢٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير النبيين وإمام المرسلين، نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ الحج مدرسة إيمانية عظيمة، يتلقى فيه المسلمون الدروسَ العظيمة والفوائد الجليلة والعِبر النافعة في شتى المجالات، وفي جميع أبواب الدين « العقائد والعبادات والسلوك ... »، ويتفاوتون في قوة تحصيلها وحسن اكتسابها تفاوتاً عظيماً بين مقلٍّ ومستكثرٍ، والتوفيق بيد الله وحده.

ولذا رأيتُ أنَّ من المفيد استخلاص جملة من الدروس العظيمة المستفادة في الحج، والمتعلّقة بجانب

الاعتقاد خاصة؛ إذ هو الأساس والأصل الذي تُبنى عليه الأعمال، ويقوم عليه الدين كلّه، وهي مجرّد إشارة إلى بعض الدروس المستفادة فيه، وإلاّ فإنَّ ما يُستفاد فيه من دروسٍ وفوائد أمر يفوق الحصر، ولا يبلغه العدُّ.

وقد بلغ عدد هذه الدروس المستخلصة هنا ثلاثة عشر درساً، راعيت أن تكون متجانسة في حجمها وطريقة طرحها، والله أسأل أن ينفع بهذا الجهد وأن يتقبَّله بقبول حسن، إنَّه نعم المجيب.



الأول: بيان أنَّ الحج مدرسة عظيمة

لا ريب أن الحج من أفضل الطاعات وأجلِّ القُرُبات التي يتقرَّب بها المسلم إلى ربِّه تعالى، بل هو عبادةٌ من العبادات التي افترضها الله وجعلها إحدى الدعائم الخمس التي يرتكز عليها الدينُ الإسلاميُّ الحنيف، والتي بيَّنها رسول الله ﷺ بقوله في الحديث الصحيح: « بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنَّ محمّداً رسول الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وصيامِ رمضان، وحجِّ البيتِ »(١).

وثبت عنه ﷺ في أحاديثَ كثيرةٍ ترغيبُ أمّته في الحج وحثُّهم على هذه الطاعة العظيمة، وبيَّن لهم ما يَغنمونه في الحج من أجورٍ عظيمةٍ وثوابٍ جزيل وغفرانٍ للذنوب.

روى مسلم في صحيحه أنَّ النبي ﷺ قال لعمرو بن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم:٨)، ومسلم (رقم:١٦).

العاص رضي الله عنه عند إسلامه: « أمَا علِمتَ أنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأنَّ الحج يهدم ما كان قبله »[١].

وروى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من حجّ ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمُّه »[٢]، وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « العمرة إلى العمرة كفّارةٌ لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاءٌ إلاّ الجنة »[٣].

وقد حج صلواتُ الله وسلامه عليه بالناس في السنة العاشرة من الهجرة النبوية حجّتَه التي رسم فيها لأُمَّته عملياً كيفية أداء هذه الفريضةِ العظيمةِ وحثّ على تلقّي

---

(١) صحيح مسلم (رقم:١٢١).

(٢) صحيح البخاري (رقم:١٥٢١)، ومسلم (رقم:١٣٥٠).

(٣) صحيح مسلم (رقم:١٣٤٩).

كلّ ما يصدر منه ﷺ من أعمال وأقوال، فقال: « خذوا عنّي مناسككم فلعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا »[١]، فسُمِّيت حجّةَ الوداع، وفيها نزل على رسول الله ﷺ قولُ الله تعالى: ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾ [سورة: المائدة، الآية ٣].

إنَّ الواجب على كلِّ مسلم قدِم لأداء هذه الطاعة العظيمة أنْ يجتهد تمام الاجتهاد في معرفة هدي النبي ﷺ في الحج وكيفية أدائه لمناسكه ليسلك منهجه وليسير على طريقته وليقتفي أثره وليأخذ عنه مناسكه، وليتأتّى له بذلك الإتيانُ بالحج على التمام والكمال، إذ لا كمال في هذه الطاعة وفي غيرها من الطاعات إلاّ بالاقتفاء لآثار الرسول الكريم ﷺ والسير على منهاجه.

لا ريب أنَّ كلَّ مسلم على وجه الأرض تتحرّك نفسه في هذه الأيّام المباركة شوقاً لأداء هذه الطاعة

---

(١) صحيح مسلم (رقم:١٢٩٧).

العظيمة، وطمعاً في تحقيق هذا النسك الجليل، ومحبّة لرؤية بيت الله العتيق؛ إذ إنَّ المسلمين جميعَهم صِلتُهم ببيت الله الحرام وثيقةٌ، وهي تنشأُ منذُ بدء انتماءِ المسلم لدين الإسلام، وتستمرُّ معه ما بقيت روحه في جسده، فالصبيُّ الذي يولد في الإسلام أوّلُ شيء يطرقُ سمعَه من فرائض الإسلام أركانُه الخمسةُ التي أحدها حجُّ بيت الله الحرام، والكافر إذا أسلم وشهد أن لا إله إلاّ الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله أوّلُ ما يُوجَّه إليه من فرائض الإسلام بقيّةُ أركانه بعد الشهادتين وهي: إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة وصومُ رمضان وحج بيت الله الحرام، وأوّلُ أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلوات الخمس التي افترضها الله على عباده في كلِّ يومٍ وليلةٍ، وجَعَلَ استقبال بيت الله الحرام شرطاً من شروطها، قال الله تعالى: ﴿قد نرى تقلّب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ [البقرة، ١٤٤]، فصِلةُ المسلم ببيت

ا لله الحرام مستمرةٌ في كلِّ يومٍ وليلةٍ يستقبله مع القدرة في كلِّ صلاة يصليها فريضة كانت أو نافلة كما يستقبله في الدعاء[١].

ولهذا فإنَّ هذه الصلة الوثيقة التي حصل بها هذا الارتباطُ بين قلب المسلم وبيت ربّه بصفة مستمرة تدفع بالمسلم ولا بدَّ إلى الرغبة المُلِحَّة في التوجُّه إلى ذلك البيت العتيق ليمتِع بصره بالنظر إليه وليؤدّي الحج الذي افترضه ا لله عليه إذا استطاع إليه سبيلاً، فالمسلم متى استطاع الحج بادر إليه أداءً لهذه الفريضةِ ورغبةً في مشاهدة البيت الذي يستقبله في جميع صلواته، ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران ٩٧].

ولهذا فإنَّ الواجب عليك أخي الحاج أن تحمد ا لله

---

(١) انظر: الحج فضله وفوائده، للوالد الكريم الشيخ عبد المحسن البدر حفظه ا لله (ضمن مجموع: قبس من هدي الإسلام ص: ١٢٨ - ١٣٣).

كثيراً على نعمته عليك العظيمة، بالتوفيق لأداء هذه الطاعة، والقدوم لتحقيق هذه العبادة، والتشرف برؤية بيت الله العتيق قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأن تجتهد في تكميل أعمال الحج على أحسن وجه وأكمل حال دون إخلالٍ أو تقصيرٍ ودون إفراط أو تفريط، بل تكون على هَدْيٍ قاصدٍ وطريقٍ مستقيمٍ مُتَّبِعاً في ذلك لرسولك الكريم ﷺ، تبتغي بعملك هذا مرضاةَ ربِّك، ونيلَ ثوابه، ومغفرةَ الذنوب، ولتعودَ إلى بلادك بعد هذه الرحلة المباركة وذنبُك مغفورٌ، وسعيك مشكورٌ، وعملُك صالحٌ مُتَقَبَّلٌ مبرورٌ، بحياةٍ جديدةٍ صالحةٍ مليئةٍ بالإيمان والتقوى، عامرةٍ بالخير والاستقامة، زاخرةٍ بالجد والاجتهاد في طاعة الله.

إنَّ الحج فرصةٌ عظيمةٌ للتزوُّد فيه من زاد الآخرة بالتوبة إلى الله والإنابة إليه والإقبال على طاعته والسعي في مرضاته، ومن خلال الحج ومناسكه يتهيَّأ للحاج فُرَصٌ كثيرةٌ لتلقي الدروس النافعة والعبَر المؤثِّرة والفوائد

الجليلة والثمار الكريمة اليانعة في العقيدة والعبادة والأخلاق بدءاً بأوّل عملٍ من أعمال الحج يقوم به العبد في الميقات وانتهاء بآخر عمل من أعمال الحج بطوافِ سبعةِ أشواطٍ يودِّع فيها الحاجُّ بيت الله الحرام، وهو بصدقٍ مدرسةٌ تربويَّةٌ إيمانيةٌ عظيمةٌ يتخرّج فيها المؤمنون المتقون، فيشهدون في حجِّهم المنافعَ العظيمةَ والدروسَ المتنوِّعةَ والعِظاتِ المؤثِّرةَ، فتحيى بذلك القلوب ويتقوّى الإيمان، يقول الله تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلِّ ضامر يأتين من كلِّ فجٍّ عميقٍ ليشهدوا منافع لهم﴾ [الحج ٢٧،٢٨]، ومنافع الحجِ لا تُحصىً وفوائده لا تستقصى، وعبرُه ودروسُه المستفادة منه لا يحاط بها، وسوف نقف بإذن الله تعالى من خلال هذه الرسالة على جملة طيّبة ومجموعة نافعة من الدروس العظيمة والمنافع الجليلة المستفادة من حج بيت الله الحرام، وبالله وحده التوفيق.

الثاني: في بيان جملة من منافع الحج

تقدّم الكلام على فضلِ الحج ورفعةِ مكانته وأنّه من أجلِّ العبادات وأعظم القُرُبات وأنّه ركنٌ من أركان الإسلام العظيمة وأساس من أُسُسه المتينة التي بها يقوم وعليها يُبنى، وتقدّم الإشارةُ إلى أنَّ الحج فيه من الفوائد والمنافع الدينية والدنيوية ما لا يحصيه المُحصون ولا يقدر على عدّه العادُّون، وفي ذلك يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامر يأتين من كلّ فجٍ عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثمَّ ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ [الحج ٢٧ ـ ٢٩]، فالحج مليءٌ بالمنافع العظيمة الدينية والدنيوية، واللاّم في قوله تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ هي لام التعليل وهي متعلّقة بقوله تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا

وعلى كلّ ضامر﴾ الآية، أي: إن تؤذّن فيهم بالحج يأتوك مشاة وركباناً لأجل أن يشهدوا أي يحضروا منافع لهم والمراد بحضورهم المنافع حصولها لهم.

وقوله تعالى في الآية ﴿منافعَ﴾ هو جمعُ منفعةٍ، ونكّر المنافعَ؛ لأنَّه أراد منافع مختصةً بهذه العبادة دينيّةً ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات مجتمعة.

روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ قال: « منافعُ في الدنيا ومنافعُ في الآخرة، فأمّا منافع الآخرة فرضوان الله عَزَّوَجَلَّ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البُدْنِ في ذلك والذبائحِ والتجارات »[١].

وروى عبد الرزاق عن مجاهد رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾، قال: « التجارة وما أرضى الله من أمر الدنيا والآخرة »[٢].

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٣٧/٦).

(٢) تفسير عبد الرزاق (٣٦/٢).

وروى ابن جرير الطبري في تفسيره عن مجاهد رحمه الله: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ قال: « الأجرُ في الآخرة والتجارةُ في الدنيا »(١).

فالمنافع التي يُحصِّلها الحجيج ويَجنونها في حجهم لبيت الله الحرام عديدة ومتنوِّعة:

- منافعُ دينيةٌ من العبادات الفاضلة والطاعات الجليلة التي لا تكون إلا فيه.

- ومنافعُ دنيويةٌ من التكسب وحصول الأرباح الدنيوية، كما قال تعالى في سياق آيات الحج من سورة البقرة: ﴿ليس عليكم جناحٌ أن تبتغوا فضلا من ربِّكم﴾ [البقرة ١٩٨].

روى أبو داود وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « كانوا يتقون البيوعَ والتجارة في الموسم والحج يقولون: أيامُ ذكر، فأنزل الله: ﴿ليس عليكم

---

(١) جامع البيان (١٠/١٤٧).

جناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم﴾ »[١].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية أنّه قال: « لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده »[٢].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: « وقد أطبق علماء التفسير على أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم﴾: أنّه ليس على الحاج إثمٌ ولا حرجٌ إذا ابتغى ربحاً بتجارة في أيّام الحج إن كان ذلك لا يشغله عن شيء من أداء مناسكه »[٣].

ومن المنافع الدنيوية أيضاً للحجاج ما يصيبونه من

---

(١) رواه أبو داود (رقم:١٧٣٤)، ورواه وكيع وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير كما في الدر المنثور للسيوطي (١/٥٣٤).

(٢) رواه ابن جرير (٢/٢٨٢).

(٣) أضواء البيان (٥/٤٨٩).

البُدن والذبائح كما قال تعالى: ﴿لكم فيها منافع إلى أجلٍ مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق﴾.

إلاّ أنَّ ما يحصِّله الحاج من منافع دينية في حجه لا تقارن بهذه المنافع الدنيوية؛ إذ في الحج من الأجور العظيمة والثواب الجزيل ومغفرة الذنوب وتكفير السيِّئات وغير ذلك ممّا لا يحصى من الفوائد الدينية العظيمة التي ينالها الحاجُّ إن كان متَّقياً لله في حجه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأيُّ خير أعظم وأيُّ ربح أجلُّ من أن يخرج الحاج من حجه كيوم ولدته أمه بلا إثم ولا خطيئة كما قال الله تعالى: ﴿فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾ [البقرة ٢٠٣]، وقد اختار ابن جرير في تفسيره لهذه الآية بعد أن ذكر أقوال أهل العلم في معناها أنَّ المراد «فمن تعجّل في يومين من أيّام منى الثلاثة، فنفر في اليوم الثاني فلا إثم عليه، لحطِّ اللهِ ذنوبَه إن كان قد اتّقى الله في حجه، فاجتنب فيه ما أمره الله باجتنابه، وفعل فيه ما أمره الله

بفعله، وأطاعه بأدائه على ما كلّفه من حدوده، ومن تأخّر إلى اليوم الثالث ... فلا إثم عليه لتكفير الله له ما سلف من آثامه وإجرامه إن كان اتّقى الله في حجه بأدائه بحدوده »[١].

ثم ذكر رحمه الله تظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ في هذا المعنى ومن ذلك قوله ﷺ: « من حج هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه »[٢]، وقوله ﷺ: « الحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة »[٣]، وقوله ﷺ: « تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكيرُ خبث الحديد »[٤].

---

(١) جامع البيان (٣٠٩/٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم:١٥٢١)، ومسلم (رقم:١٣٥٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم:١٣٤٩).

(٤) أخرجه النسائي (١١٥/٥)، والطبراني في الكبير (رقم:١١١٩٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (رقم:١٢٠٠).

فهذه النصوصُ تدلُّ على أنَّ من حج فقضاه بحدوده على ما أمره الله فهو خارج من ذنوبه كما قال جلّ وعلا: ﴿فلا إثم عليه لمن اتقى﴾ أي: اتقى الله في حجه بفعل الأوامر واجتناب النواهي، ولا ريب أنَّ هذه فضيلة عظيمة ومنفعة جليلة تسارع في نيلها القلوب المؤمنة وتطمع في تحصيلها النفوس الصادقة، فلله ما أجلّها من فضيلة وأعظمها من منفعة عندما ينقلب الحاج إلى بلده بعد قضائه لحجِّه وذنبه مغفور، قد خرج من ذنوبه وآثامه طاهراً نقياًّ كيوم ولدته أمّه ليس عليه ذنب ولا خطيئة إذا كان متّقياً ربَّه في حجِّه.

بل إنَّ الربَّ سبحانه من عظيم كرمه وجميل إحسانه بعباده الحجيج يباهي ملائكته بحجاج بيته الحرام عندما يقفون جميعُهم على صعيد عرفة ويقول: « انظروا إلى عبادي أتوني شُعثاً غُبراً ضاحين من كلِّ فجٍّ عميق

أشهدكم أني قد غفرتُ لهم »[١].

وبهذا يتبيّن أنَّ الحاج يعود من حجه بأكبر ربح وأعظم غنيمة ألا وهي مغفرة ربِّه لذنبه، فيبدأ بعد الحج حياة جديدة صالحة مليئة بالإيمان والتقوى عامرة بالخير والاستقامة والمحافظة على الطاعة، إلاَّ أنَّ حصولَ هذا الأجر مشروطٌ كما تقدّم بأن يأتي بالحج على وجه صحيح بإخلاص وصدق وتوبة نصوح مع مجانبةٍ لما يُخلُّ به من رفثٍ وفسوقٍ، فإذا كان كذلك جبَّ ما قبله وخرج منه الحاج بتلك الحال الرائعة، كيوم ولدته أمه بلا إثم ولا خطيئة.

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (رقم: ٢٨٤٠)، وضعّفه الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة (رقم: ٦٧٩).
وللجملة الأولى أعني إلى قوله: « غبراً » منه شاهد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند أحمد (٢/٢٢٤)، ومن حديث أبي هريرة عند أحمد أيضاً (٢/٣٠٥)، وابن خزيمة (رقم: ٢٨٤٠)، والحاكم في المستدرك (١/٤٦٥)، وغيرهم.

الثالث: الدلالات العقدية في الإهلال بالتوحيد

إنَّ من أجلِّ الدروس العظيمة التي يفيدها المسلم في حجّه لبيت الله الحرام وجوبَ إخلاص العبادات كلِّها لله وحده لا شريك له، فالمسلم يبدأ حجَّه أولَّ ما يبدأ بإعلان التوحيد ونبذ الشرك، قائلاً: « لبيك اللّهمَّ لبّيك، لبيك لا شريك لك لبّيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك »، يقولها ويرفع بها صوته، وهو في الوقت نفسه مستشعر ما دلت عليه من وجوب إفراد الله وحده بالعبادة والبعدِ عن الشرك، فكما أنَّ الله متفرّد بالنِّعمة والعطاء لا شريك له، فهو متفرِّدٌ بالتوحيد لا نِدَّ له، فلا يُدعى إلاَّ الله، ولا يُتوكّل إلاَّ على الله، ولا يُستغاث إلاَّ به، ولا يُصرف أيُّ نوع من أنواع العبادة إلاَّ له، وكما أنَّ العبد مُطالَبٌ بقصد الله وحده في الحج، فهو مُطالَبٌ بقصده وحده في كلِّ عبادة يأتيها وكلّ طاعة يتقرّب

بها، فمن صرف شيئاً من العبادة لغير الله أشرك بالله العظيم، وخسر الخسران المبين، وحبط عمله، ولم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

لقد جاء الإسلام بهذا الإهلال العظيم، الإهلال بتوحيد الله وإخلاص الدين له والبعدِ عن الشرك كلّه صغيره وكبيره، دقيقه وجليله، بينما كان المشركون عبّادُ الأصنام والأوثان، يُهلّون في إحرامهم بالحج بالشرك والتنديد، فكانوا يقولون في تلبيتهم: « لبّيك لا شريك لك إلاَّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك »، فيُدخلون مع الله في التلبية آلهتهم الباطلةَ، ويجعلون ملكها بيده، وهذا هو معنى قولِ الله عنهم في القرآن الكريم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف ١٠٦]، أي ما يؤمن أكثرهم بالله بأنّه الخالقَ الرازق المدبّر إلاَّ وهم مشركون معه في العبادة أوثاناً لا تملك شيئاً وأصناماً لا تنفع ولا تضرّ ولا تعطي ولا تمنع بل لا تملك من ذلك شيئاً لنفسها فضلاً عن أن تملكه لغيرها.

روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « مِن إيمانهم إذا قيل لهم مَن خلق السماء، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون ».

وعن عكرمة أنّه قال: « تسألهم من خلقهم ومن خلق السموات والأرض فيقولون: الله، فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيرَه ».

وعن مجاهد قال: « إيمانهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمانٌ مع شرك عبادتهم غيره ».

وعن ابن زيد قال: « ليس أحد يعبد مع الله غيرَه إلاّ وهو مؤمن بالله، ويعرف أنَّ الله ربُّه، وأنَّ الله خالقُه ورازقُه وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدوٌّ لي إلا ربَّ العالمين﴾ [الشعراء ٧٥ - ٧٧]، قد عرف أنَّهم يعبدون ربَّ العالمين مع ما يعبدون، قال: فليس أحد يشرك إلاّ وهو مؤمن به، ألا ترى كيف كانت

العرب تلبِّي تقول: لبّيك لا شريك لك إلاَّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، المشركون كانوا يقولون هذا »[١].

لقد كان المشركون زمن النبي ﷺ يقرّون بأنَّ خالقَهم ورازقَهم ومدبّر شؤونهم هو الله، ثم هم مع هذا الإقرار لا يُخلِصون الدين له، بل يشركون معه غيرَه في العبادة من الأشجار والأحجار والأصنام وغيرها، وقد جلى الله هذا الأمرَ وبيّنه في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، كقوله سبحانه: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنَّ الله فأنَّى يُؤفكون﴾ [العنكبوت ٦١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره: « يقول تعالى مقرِّراً أنَّه لا إله إلاَّ هو؛ لأنَّ المشركين الذين يعبدون معه غيرَه معترفون أنَّه المستقلّ بخلق السموات والأرض، والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنَّه

---

(١) جامع البيان (٨/٧٧ ـ ٧٨).

الخالق الرازق لعباده، ومقدِّر آجالِهم واختلافها، واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير. وهو العليم بما يصلح كلاً منهم، ومن يستحق الغنى ممّن يستحق الفقر، فذكر أنّه المستبدُ بخلق الأشياءَ المتفرّدُ بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلِمَ يُعبد غيره؟ ولِمَ يتوكّل على غيره؟ فكما أنّه الواحد في ملكه فليكن الواحدَ في عبادته، وكثيراً ما يقرّر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبّيك لا شريك لك إلاَّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك ». اهـ[1].

وهذا المعنى يكثر في القرآن الكريم، الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبية الله جلّ وعلا على وجوب توحيده في عبادته، وإخلاص الدين له، ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقرّوا بربوبيته

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/٣٠١).

احتجّ بها عليهم على أنّه هو المستحق لأنْ يُعبد وحده، ووبّخهم منكراً عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنّه هو الرب وحده؛ لأنَّ من اعترف بأنّه الرب وحده لزمه أن يخلص العبادة كلّها له، وبهذا يتبيّن أنَّ الاعتراف بأنَّ الله هو الخالق الرازق المنعم المتصرّف المدبّر لشؤون الخلق لا يكفي في التوحيد، ولا يُنجي من عذاب الله يوم القيامة ما لم تُخلص العبادةُ كلُّها لله وحده، فالله لا يقبل من عباده توحيدهم له في الربوبية إلاّ إذا أفردوه بتوحيد العبادة، فلا يتّخذون له ندًّا، ولا يدعون معه أحداً، ولا يتوكّلون إلاّ عليه، ولا يصرفون شيئاً من العبادة إلاّ له سبحانه، فكما أنّه سبحانه المتفرّد بالخلق، فهو سبحانه المتفرّد بجميع أنواع العبادة.

ولهذا قال تعالى للذين صرفوا العبادة لغيره، مع أنّهم يعلمون أنّه خالقهم ورازقهم: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾ [البقرة ٢٢]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: « أيْ لا تشركوا بالله غيرَه من الأنداد التي لا تنفع ولا

تضر، وأنتم تعلمون أنَّه لا ربَّ لكم يرزقكم غيرُه، وقد علمتم أنَّ الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه »[١].

وقال قتادة: « أي تعلمون أنَّ الله خلقكم وخلق السموات والأرض، ثم تجعلون له أنداداً »[٢].

إنَّ النِّعمةَ على أمَّة الإسلام عظيمةٌ بهدايتهم إلى توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، والنعمةُ عليهم عظيمة بتوفيقهم إلى الإهلال بتوحيد الله بعد أن كان غيرُهم يهلُّ بالشرك والتنديد، فله الحمدُ سبحانه على توفيقه وإنعامه وهدايته حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا الكريمُ ويرضى.

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١/١٦٤).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (١/١٦٤).

الرابع: دلالة التلبية على التحذير من الشرك

تقدّم معنا بيانُ فضلِ التلبية وأنّها مشتملةٌ على الإهلال بتوحيد الله ﷻ، ونبذ الشرك؛ ولهذا قال الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنه، كما في صحيح مسلم عندما وصف حجَّة النبيِّ ﷺ قال: « فأهلَّ بالتوحيد، لبّيك اللّهمَّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك »[1]، فوصف رضي الله عنه هذا الإهلال بأنّه إهلالٌ بالتوحيد؛ لأنَّ فيه الإخلاصَ لله ونبذَ الشرك، وهذا يدلُّ أيضاً على أنَّ هذه الكلماتِ أعني كلماتِ التلبيةِ ليست ألفاظاً مجرّدة لا تدلّ على معان؛ بل لها معنىً عظيم، ومدلول عميق، ألا وهو روح الدين وأساسه وأصله

---

(١) صحيح مسلم (رقم:١٢١٨).

الذي ينبني عليه توحيد ا لله تعالى.

ولهذا فإنَّ الواجب على كلِّ من أهلَّ بهذه الكلمات العظيمة أن يستحضر ما دلّت عليه من معنى، وأن يعرفَ ما تضمّنته من دلالة؛ ليكون صادقاً في إهلاله، موافقاً كلامُه حقيقةَ حاله، بحيث يكون مستمسكاً بالتوحيد، محافظاً عليه، مراعياً لحقوقه، مجانباً تمام المجانبة لنواقضه وما يضادّه من الشرك والتنديد، فلا يسألُ إلاّ ا لله، ولا يستغيث إلاّ با لله، ولا يتوكّل إلاّ على ا لله، ولا يطلب المددَ والعونَ والنصرَ إلاّ من ا لله، ولا يصرف أيَّ نوع من أنواع العبادة إلاّ لله وحده، الذي بيده سبحانه العطاءُ والمنع والقبض والبسط والنفع والضر، ﴿أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكّرون﴾ [النمل ٦٢].

والمسلم عندما يقول في تلبيته: « لا شريك لك » يجب أن يكون عالماً بحقيقة الشرك، مُدرِكاً لخطره، حذِراً تمام الحذر من الوقوع فيه، أو في شيء من أسبابه

ووسائله وطرقه؛ إذ هو أعظم ذنب عُصِيَ الله به، ولهذا رُتِّبَ عليه من العقوبة في الدنيا والآخرة ما لم يُرتَّب على غيره من الذنوب، من إباحة دماء أهله وأموالهم، وسبي نسائهم وأولادهم، وعدمِ مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه، قال الله تعالى: ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشآء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما﴾ [النساء ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشآء ومن يشرك بالله فقد ضلَّ ضلالاً بعيدا﴾ [النساء ١١٦]، وقال تعالى: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ [المائدة ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى اللذين من قبلك لئن أشركتَ ليحبطنَّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾ [الزمر ٦٥،٦٦]، والآيات في هذا المعنى في القرآن الكريم كثيرة جدًّا، يحذّر فيها الربُّ سبحانه عبادَه من الشرك به، ويبيّن لهم شدَّةَ خطره وعِظمَ مغبَّته وسوء عاقبته على

فاعله في الدنيا والآخرة.

فالشرك عاقبته وخيمة، ونهايته أليمة، وأخطاره جسيمة، ولا يربح فاعلُه من ورائه شيئاً إلاّ الخيبةَ والحرمان والمذلّة والخسران، وهو أعظم ذنب عُصيَ الله به؛ لأنّه أظلم الظلم؛ إذ مضمونه تنقّصُ ربِّ العالمين، وصرف خالصِ حقّه لغيره، وعدلُ غيره به؛ ولأنّه مناقضٌ للمقصود بالخلق والأمر، ومنافٍ له من كلّ وجه، وفيه غاية المعاندة لربِّ العالمين والاستكبارِ عن طاعته، والذلِّ له؛ ولأنَّ فيه تشبيهاً للمخلوق بالخالق تعالى وتقدّس، وكيف يُجعَلُ من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فضلاً عن غيره شبيهاً بمن له الخلقُ كلُّه، وله الملك كلّه، وبيده الخير كلّه، وإليه يرجع الأمر كلّه، فأزِمَّة الأمور بيده سبحانه، ومرجعها إليه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسلَ له من بعده.

إنَّ الواجب على كلِّ مسلم أن يحذر من الشرك أشدَّ الحذر، وأن يخاف من الوقوع فيه أشدَّ الخوف، فهذا نبيُّ الله وخليله إبراهيمُ عليه السلام يقول في دعائه: ﴿واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام ربّ إنهنَّ أضللن كثيراً من الناس﴾ [إبراهيم ٣٥،٣٦]، فخاف عليه السلام من ذلك ودعا ربَّه أن يعافيه وبنيه من عبادتها، فإذا كان إبراهيم الخليل عليه السلام يسأل الله أن يجنّبه ويجنّب بنيه عبادة الأصنام، فما ظنّك بغيره؟ كما قال إبراهيم التيمي رحمه الله: «ومن يأمنُ من البلاء بعد إبراهيم»[1]، فهذا ولا ريب يوجب للقلب الحي الخوفَ من الشرك وشدّةَ الاحتراز منه، وسؤالَ الله دوماً وأبداً العافية من الوقوع فيه، وهذا أيضاً يتطلّب من العبد المؤمن أن يكون عالماً بحقيقة الشرك وأسبابه، ومبادئه وأنواعه؛ لئلاَّ يقع فيه، ولهذا قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «كان الناس يسألون رسول الله

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٢٨/٨).

ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه »، رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما[١].

وذلك أنَّ من لم يعرف إلاَّ الخير قد يأتيه الشر ولا يعرف أنَّه شرٌّ، فإمّا أن يقع فيه، وإمَّا أن لا ينكرَه كما ينكره الذي عرفه؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: « إنَّما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية »[٢].

إنَّ البعدَ عن الشرك كلِّه وإخلاصَ التوحيد لله أصلٌ يجب أن تُبنى عليه كلُّ طاعة يتقرّب العبدُ بها إلى الله تعالى، الحجُّ وغيرُه، وقد قال الله تعالى في سورة الحجِّ: ﴿وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلِّ ضامر يأتين من كلِّ فجّ عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام

(١) انظر: صحيح البخاري (رقم:٣٦٠٦)، وصحيح مسلم (رقم:١٨٤٧).

(٢) انظره مع تعليق مفيد عليه في الفوائد لابن القيم (ص:٢٠١).

معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البآئس الفقير ثمَّ ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلاَّ ما يُتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفآء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنَّما خرَّ من السمآء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ [الحج ٢٧ - ٣١].

فحذّر سبحانه في هذا السياق الكريم المتعلّق بالحج من الشرك، وأمر باجتنابه، وبيّن قبحَه وسوءَ عاقبتِه، وأنَّ فاعلَه بفعله له كأنَّما خرَّ من السماء فتخطفُه الطيرُ أو تهوي به الريحُ في مكان سحيق، كما أنَّه سبحانه قد أمر نبيَّه إبراهيم عليه السلام في الآية التي قبل هذه الآيات بتطهير البيت بعد أن بوّأه مكانه، ونهاه عن الإشراك بالله، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئًا وطهّر بيتي للطآئفين والقآئمين والرُّكَّع السجود﴾، فكانت بذلكَ الآيات المتعلّقةُ بالحج محفوفة

بالتحذير من الشرك، والنهي عنه، وبيان سوء عاقبته، ممّا يدلُّ أعظم دلالة على شناعةِ الشرك وعِظمِ خطورته، حمانا الله وإيّاكم منه، ورَزقنا الإخلاص في القول والعمل.



الخامس: في بيان جملة من الفوائد المستفادة من التلبية

إنَّ لكلمات التلبية شأناً عظيماً ودلالات عميقة، وقد سبق الحديثُ عن دلالات كلمات التلبية على تحقيق التوحيد ونبذ الشرك، وهي بلا ريب كلمات عظيمة تشتمل على معانٍ جليلةٍ، ومقاصدَ نبيلةٍ، وفوائدَ جمّة، وقد نبّه أهل العلم على عِظم شأن هذه الكلمات وعِظم ما اشتملت عليه من منافعَ وفوائد، وقد تناول هذا الجانب بوفاء وزيادة في البسط والبيان الإمامُ العلاّمة ابن القيّم في كتابه تهذيب السنن[١].

قال رحمه الله: « وقد اشتملت كلمات التلبيّة على قواعدَ عظيمةٍ وفوائد جليلة ... »، ثمّ ذكر رحمه الله إحدى وعشرين فائدة، ولعلّي في هذا المقام ألخِّص جملةً

---

(١) تهذيب السنن (٢/٣٣٧ ـ ٣٤٠).

طيّبةً من هذه الفوائد الجليلة التي اشتملت عليها التلبية ممّا ذكره رحمه الله:

فمن هذه الفوائد أنَّ قولك: « لبّيك » يتضمّن إجابة داعٍ دعاك، ومنادٍ ناداك، ولا يصح في لغة ولا عقل إجابة من لا يتكلّم ولا يدعو من أجابه، ففي هذا إثبات صفة الكلام لله.

ومنها: أنَّها تتضمّن المحبة، ولا يُقال لبّيك إلاَّ لمن تحبّه وتعظِّمه، ولهذا قيل في معناها: أنا مواجه لك بما تحب، وأنَّها من قولهم: امرأة لبّة، أي محبة لولدها.

ومنها: أنَّ التلبية تتضمّن التزام دوام العبودية، ولهذا قيل: هي من الإقامة، أي أنا مقيم على طاعتك.

ومنها: أنَّها تتضمّن الخضوع والذلّ، أي خضوعاً بعد خضوع، من قولهم: أنا مُلبٌّ بين يديك، أي خاضع ذليل.

ومنها: أنَّها تتضمّن الإخلاص، ولهذا قيل: إنَّها من اللُبِّ، وهو الخالص.

ومنها: أنَّها تتضمّن الإقرار بسمع الرب تعالى؛ إذ يستحيل أن يقول الرجل لبّيك لمن لا يسمع دعاءَه.

ومنها: أنَّها تتضمّن التقرّب من الله، ولهذا قيل: إنّها من الإلباب، وهو التقرّب.

ومن هذه الفوائد: أنَّها جُعلت في الإحرام شعاراً لانتقال من حال إلى حال، ومن مَنسك إلى منسك، كما جُعل التكبيرُ في الصلاة سبباً[1]؛ للانتقال من ركن إلى ركن، ولهذا كانت السنة أن يُلبِّي حتى يشرع في الطواف فيقطعُ التلبية، ثمَّ إذا سار لبّى حتى يقف بعرفة فيقطعها، ثمَّ يلبّي حتى يقف بمزدلفة فيقطعها، ثم يلبِّي حتى يرمي جمرة العقبة فيقطعها، فالتلبية شعار الحج والتنقل في أعمال المناسك، فالحاجُّ كلّما انتقل من ركن إلى ركن قال: « لبّيك اللّهمَّ لبّيك »، كما أنَّ المصلي يقول في انتقاله من ركن إلى ركن « الله أكبر »، فإذا

---

(١) في الأصل: « سبعاً »، وهو تصحيف.

حلَّ من نسكه قطعها، كما يكون سلام المصلّي قاطعاً لتكبيره.

ومن فوائدها: أنَّها شعارُ التوحيد، ملَّةُ إبراهيم عليه السلام، الذي هو روح الحج ومقصده، بل روح العبادات كلِّها والمقصود منها، ولهذا كانت التلبيةُ مفتاحَ هذه العبادة التي يُدخل فيها بها.

ومنها: أنَّها متضمّنة لمفتاح الجنة وباب الإسلام الذي يُدخل منه إليه، وهو كلمة الإخلاص والشهادة لله بأنَّه لا شريك له.

ومنها: أنَّها مشتملة على الحمد لله الذي هو من أحبِّ ما يتقرّب به العبد إلى الله، وأول من يُدعى إلى الجنة أهله، وهو فاتحة الصلاة وخاتمتها.

ومنها: أنَّها مشتملة على الاعتراف لله بالنعمة كلّها، ولهذا عرّفها باللام المفيدة للاستغراق أي النعمُ كلُّها لك، وأنت موَلّيها والمنعم بها.

ومنها: أنَّها مشتملة على الاعتراف بأنَّ الملك كلّه

لله وحده، فلا ملك على الحقيقة لغيره.

ومن هذه الفوائد أنَّ التلبية متضمّنة للإخبار عن اجتماع الملك والنعمة والحمد لله ﷻ، وهذا نوعٌ آخر من الثناء عليه، غيرُ الثناء بمفردات تلك الأوصاف العليّة، فاجتماع الملك المتضمّن للقدرة مع النعمة المتضمنة لغاية النفع والإحسان والرحمة مع الحمد المتضمّن لعامة الجلال والإكرام الداعي إلى محبّته، فيه من العظمة والكمال والجلال ما هو أولى به، وهو أهله سبحانه، وفي ذكر العبد له ومعرفته به من انجذاب قلبه إلى الله وإقباله عليه والتوجّه بدواعي المحبة كلّها إليه ما هو مقصود العبودية ولبُّها.

ومن الفوائد أنَّ النبي ﷺ قال: « أفضل ما قلت أنا والنبيّون من قبلي: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير »، وقد اشتملت التلبية على هذه الكلمات بعينها، وتضمّنت معانيها.

ومن الفوائد أيضاً أنَّ كلمات التلبية متضمّنة للردِّ على كلِّ مبطل في صفات الله وتوحيده، فهي مبطلة لقول المشركين على اختلاف طوائفهم ومقالاتهم، ومبطلةٌ لقول الفلاسفة ومن تأثّر بهم من المعطّلين لصفات الله التي هي متعلّق الحمد، ومبطلة لقول مجوس الأمة، القدرية الذين أخرجوا عن ملك الربِّ وقدرته أفعالَ عباده من الملائكة والجنِّ والإنس، فلم يثبتوا له عليها قدرة، ولا جعلوه خالقاً لها، فمن علم معنى هذه الكلمات وشهدها وأيقن بها باين جميع الطوائف المعطّلة.

ومن الفوائد أيضاً أنَّ في إعادة الشهادة له بأنَّه لا شريك له لطيفةً، وهي أنَّه أخبر أنَّه لا شريك له عقِب إجابته بقوله: لبّيك، ثم أعادها عقب قوله: « إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك »، وذلك يتضمّن أنَّه لا شريك له في الحمد والنعمة والملك والأول يتضمّن أنَّه لا شريك له في إجابة هذه الدعوة، وهذا نظير قوله

تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلاَّ هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم﴾ [آل عمران ١٨]، فأخبر بأنَّه لا إله إلاَّ هو في أول الآية، وذلك داخل تحت شهادته وشهادة ملائكته وأولي العلم، وهذا هو المشهود به، ثمَّ أخبر عن قيامه بالقسط، وهو العدل، فأعاد الشهادة بأنَّه لا إله إلاَّ هو مع قيامه بالقسط.

فهذه جملةٌ من الفوائد العظيمة والقطوف الكريمة ممّا تضمّنته هذه الكلماتُ الجليلة، كلماتُ التلبية، وهي ولا ريب تدلّ على أهمية العناية بفهم معاني هذه الكلمات، وأنَّ حسن الاهتمام بذلك يعين العبد على الإتيان بهذه العبادة على أكمل وجه وأحسن حال.



السادس: في الطواف ببيت الله الحرام

إنَّ من الدروس العظيمة التي يفيدها الحاج عندما يصل إلى البيت العتيق ويقوم بتلك العبادة العظيمة: الطواف ببيت ا لله الحرام، ويرى الحجيج كلّهم يقومون بذلك طاعة لله وامتثالاً لأمره ما يفيده في ذلك المقام من معرفة كبيرة بعظم شأن هذه العبادة وجلالة قدرها وقوة وقعها على القلوب المؤمنة، ولا سيما عندما يجتمع ذلك الكمُّ الكبير من المؤمنين بلباس واحد، وعلى هيئة واحدة، مستديرين حول بيت ا لله، مسبِّحين ومهلّلين ومكبّرين، يدعون ربَّهم الكريم ويناجونه ويسألونه ويبتهلون إليه، كلٌّ واحد منهم يطوف أشواطاً سبعة، جميعهم يبتدئون من الحجر الأسود وينتهون إليه، والطواف هو الدوران حول الكعبة سبع مرّات تعبّداً لله بنيّة الطواف، مبتدئاً بالحجر الأسود ومنتهياً إليه، جاعلاً الكعبة عن يساره، والمسلمون إنَّما يفعلون ذلك طاعة

لله واتباعاً لرسول الله ﷺ، وحظُّ كلّ واحد منهم من الكمال في هذه العبادة هو بحسب حظّه من المتابعة للرسول الكريم ﷺ.

والطواف هو أوّل عمل يقوم به المسلم عندما يصل إلى مكة، روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: « إنَّ أولَ شيء بدأ به حين قدم النبي ﷺ أنّه توضّأ ثم طاف »(١)، وروى مسلم في صحيحه عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه في صفة حجّة النبي ﷺ وفيه: « ... حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً »(٢)، وروى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: « أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا طاف في الحج أو العمرة أولَ ما يقدم سعى ثلاثة أطواف ومشى أربعة، ثم سجد سجدتين [أي صلى ركعتين]،

---

(١) صحيح البخاري (رقم: ١٦٤١)، وصحيح مسلم (رقم: ١٢٣٥).

(٢) صحيح مسلم (٢/٨٩٣).

ثم يطوف بين الصفا والمروة »[١]، والأدلة على مشروعية الطواف ببيت الله الحرام متظافرة في الكتاب والسنة، وتواتر فيها النقل عن رسول الله ﷺ، وهذا فيه دلالة على أنَّ هذا العمل قُربة إلى الله وطاعة يحبها الله من عباده شرعها لهم وأمرهم بها ورغّبهم في فعلها، وجعلها منسكاً من مناسك قصد بيته الحرام، قال الله تعالى: ﴿وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامر يأتين من كلّ فجٍ عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثمَّ ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطّوفوا بالبيت العتيق﴾ [الحج ٢٧ - ٢٩]، وقد عهد الله إلى نبيّه وخليله إبراهيم وابنه نبي الله إسماعيل عليهما السلام أن يقوما بتطهير البيت وتشييد أركانه وتهيئته للطائفين والقائمين والركع السجود، قال الله تعالى: ﴿وعهدنا إلى

(١) صحيح البخاري (رقم:١٦١٦)، وصحيح مسلم (رقم:١٢٦١).

إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والرّكّع السجود﴾ [البقرة ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهّر بيتي للطائفين والقائمين والرّكّع السجود﴾ [الحج ٢٦].

وممّا تقدّم يتبيّن أنَّ الطواف بالبيت العتيق عبادة جليلة وطاعة عظيمة، يحبّها الله من عباده، وشرعها لهم وأمرهم بها، ورتّب لهم على فعلهم لها الثواب العظيم والأجر الجزيل؛ بل إنَّ الطواف بالبيت ركن من أركان الحج، كما أنّه أيضاً ركن من أركان العمرة، وهذا يدل على عِظم شأن الطواف عند الله ورفيع مكانته؛ إذ لا يتمُّ الحج إلاَّ به، ولا تتمُّ العمرة إلاَّ به.

ثمَّ إنَّ المسلم في هذا المقام العظيم يتلقى درساً عظيماً، وفائدة جليلة، وهو أنَّ هذه العبادة الجليلة ـ أعني الطواف ـ إنَّما شُرعت في هذا الموطن فقط حول بيت الله الحرام كما دلّت على ذلك النصوصُ المتقدّمةُ من الكتاب والسنة وغيرُها من النصوص، وهي كثيرة جدًّا،

وبهذا يعلم المسلم أنَّ الطواف في غير هذا الموطن في أيِّ مكان من الدنيا لا يُشرع، وليس هناك ما يدلُّ على مشروعيته، بل هو ضلال وباطل، وتسوية لبيوت المخلوقين ببيت الخالق الذي أمر سبحانه بإقامته لذكره وطاعته، والتوجّه إليه في عبادته سبحانه، ولا خلاف بين أهل العلم في بطلان الطواف في أي بقعة من البقاع، وفي أي مكان من الأمكنة سوى بيت الله الحرام، فلا يجوز الطواف حول القباب ولا القبور ولا الأضرحة ولا الأشجار ولا الأحجار ولا غيرها، والنقول عن أهل العلم في هذا الباب كثيرة جدًّا، ولعلّي أشير إلى بعض كلامهم في ذلك بحسب ما يسمح به هذا المقام.

قال الإمام النووي رحمه الله في كتابه المجموع شرح المهذّب: « ولا يجوز أن يُطاف بقبره ﷺ ... ـ وذكر أموراً ثم قال ـ: ولا يُغترُّ بمخالفة كثيرين من العوام وفعلهم ذلك، فإنَّ الاقتداء والعمل إنّما يكون بالأحاديث وأقوال العلماء، ولا يُلتفت إلى محدثات العوام

وغيرهم وجهالاتهم، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ »[١]، وفي رواية لمسلم: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ »[٢]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تجعلوا قبري عيداً، وصلّوا عليَّ، فإنَّ صلاتكم تبلغني حيثما كنتم »، رواه أبو داود بإسناد صحيح[٣]، وقال الفضيل بن عياض رحمه الله ما معناه: « اتَّبع طرقَ الهدى ولا يضرّك قلّةُ السالكين، وإيّاك وطرق الضلالة ولا تغترَّ بكثرة الهالكين »، ومن خطر بباله أنَّ المسحَ باليد ونحوه أبلغ في البركة، فهو من جهالته وغفلته؛ لأنَّ البركة إنَّما هي فيما وافق الشرع، وكيف يُبتغى الفضلُ

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٢٦٩٧)، وصحيح مسلم (رقم:١٧١٨).

(٢) صحيح مسلم (رقم:١٧١٨).

(٣) سنن أبي داود (رقم:٢٠٤٢).

في مخالفة الصواب »، اهـ كلامه رحمه الله[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وقد اتفق المسلمون على أنه لا يُشرع الطواف إلاَّ بالبيت المعمور، فلا يجوز الطواف بصخرة بيت المقدس، ولا بحجرة النبي ﷺ، ولا بالقبة التي في جبل عرفات، ولا غيرِ ذلك »[٢].

وقال رحمه الله: « ليس في الأرض مكان يُطاف به كما يُطاف بالكعبة، ومن اعتقد أنَّ الطواف بغيرها مشروع فهو شرٌّ ممّن يعتقد جواز الصلاة إلى غير الكعبة، فإنَّ النبي ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة صلّى بالمسلمين ثمانية عشر شهراً إلى بيت المقدس، فكانت قبلةَ المسلمين هذه المدة، ثمَّ إنَّ الله حوّل القبلة إلى الكعبة، وأنزل الله في ذلك القرآن كما ذكر في سورة البقرة، وصلّى النبيُّ ﷺ والمسلمون إلى الكعبة وصارت هي القبلة، وهي قبلة إبراهيم وغيره من الأنبياء.

---

(١) المجموع شرح المهذب (٢٠٦/٨ - ٢٠٧).
(٢) الفتاوى (٥٢٢/٤).

فمن اتّخذ الصخرةَ اليوم قبلة يصلّي إليها فهو كافر مرتدٌّ يُستتاب، فإن تاب وإلاَّ قُتل، مع أنَّها كانت قبلةً، لكن نسخ ذلك، فكيف بمن يتّخذها مكاناً يُطاف به كما يطاف بالكعبة، والطواف بغير الكعبة لم يشرعه الله بحال ... »، إلى آخر كلامه رحمه الله[1].

وبهذا التحقيق الذي ذكره الإمام النووي وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرُهما من أهل العلم يتبيّن عِظمُ فساد الطواف بأيٍّ مكان سوى بيت الله الحرام الذي أذن الله بالطواف حوله وشدّةُ خطره، وأمّا ما يفعله بعض الجهّال من الطواف حول القبور أو القِباب أو الأضرحة أو نحو ذلك فكلٌّ ذلك ليس من دين الله؛ بل هو من وحي الشيطان ومن تشريع إبليس، وإلاَّ فأين في الكتاب والسنة: فليطّوفوا بقبر فلان أو بضريح فلان أو نحو ذلك، تعالى الله عمّا يصفون، وسبحان الله عمّا يشركون.

---

(١) الفتاوى (٢٧/١٠ - ١١).

السابع: تقبيل الحجر الأسود واستلام الركن اليماني

كان الحديث فيما سبق عن فضل الطواف ببيت الله الحرام، تلك العبادة العظيمة والطاعة الجليلة التي هي ركن من أركان الحج والعمرة، وأنّها إنّما تُشرع في هذا المكان فقط، كما قال الله تعالى: ﴿وليطّوفوا بالبيت العتيق﴾، فلا يجوز الطواف بالقِباب أو القبور أو الأضرحة وغيرها؛ لمصادمة هذا الأمر لأصول الشريعة ولمخالفته لحقيقة التوحيد، ولما فيه من تشريك المخلوق وتسويته بالخالق سبحانه، وقد مضى الحديثُ عن هذا الجانب مفصّلاً بعض الشيء، وأمّا الحديث هنا فسيكون بإذن الله عن درس آخر وفائدة أخرى يفيدها المسلم حينما يصل إلى بيت الله الحرام ليطوف به؛ إذ يُشرع له في هذا المقام تقبيلُ الحجر الأسود، واستلامُ الركن اليماني طاعة لله واتّباعاً لرسول الله ﷺ، وقد وردت

أدلّة عديدة فيها بيانُ مشروعية ذلك، وأنَّ النبي ﷺ فعله عندما قدم بيت ا لله الحرام.

روى البخاري ومسلم عن عبد ا لله بن عمر بن الخطاب رضي ا لله عنهما قال: «رأيت رسول ا لله ﷺ حين يقدم مكة إذا استلم الركن الأسود أول ما يطوف يخبُّ ثلاثة أطواف من السبع»[١]، وروى مسلم من حديث جابر بن عبد ا لله رضي ا لله عنه قال: «لما قدم النبي ﷺ مكة دخل المسجد فاستلم الحجر، ثم مضى على يمينه، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً ...»، الحديث[٢].

وهكذا المسلمون يُقبِّلون الحجرَ من بعده اتّباعاً له ﷺ واقتداء بهديه ولزوماً لسنّته، لا لاعتقاد منهم أنَّ الحجر الأسود ينفع ويضرّ، أو يُعطي و يمنع، ولهذا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه عندما قبَّل

---

(١) صحيح البخاري (رقم:١٦٠٣)، وصحيح مسلم (رقم:١٢٦١).

(٢) صحيح مسلم (٢/٨٩٣).

الحجر الأسود: « إنّي لأعلم أنّك حجر ما تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبّلتك »، رواه البخاري ومسلم[١].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: « إنّما قال ذلك عمر؛ لأنَّ الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخشي عمر أن يظنَّ الجهال أنَّ استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار، كما كانت العرب تفعل في الجاهلية، فأراد عمر أن يعلم الناس أنَّ استلامَه اتّباعٌ لفعل رسول الله ﷺ، لا لأنَّ الحجر ينفع ويضر بذاته، كما كانت تعتقده في الأوثان ». اهـ كلامه رحمه الله[٢].

أمّا ما يُروى من حديث أبي سعيد أنَّ عمر لما قال هذا قال له علي بن أبي طالب: « إنّه يضر وينفع »، وذكر أنَّ الله لمّا أخذ المواثيق على ولد آدم كتب ذلك

---

(١) صحيح البخاري (رقم:١٥٩٧)، وصحيح مسلم (رقم:١٢٧٠).

(٢) نقله الحافظ في الفتح (٤٦٣/٣).

في رقٍّ وألقمه الحجر، قال: وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق، يشهد لمن استلمه بالتوحيد»، فإنَّ هذا لا يثبت عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: «وفي إسناده أبو هارون العبدي، وهو ضعيف جدًّا»[1]، فأبو هارون هذا، راوي هذا الأثر متروك الحديث عند أهل العلم، ومنهم من كذَّبه، قال النسائي فيه: «متروك الحديث»، وقال حماد ابن زيد: «كان أبو هارون العبدي كذاباً، بالغداة شيء وبالعشيِّ شيء»، وقال الجوزجاني: «كذاب مفتري»، وقال ابن حبان: «كان يروي عن أبي سعيد ما ليس من حديثه، لا يحل كَتْبُ حديثه إلاَّ على جهة التعجّب»[2]، فكيف يُعتدُّ برواية من هذه حاله عند أهل العلم.

---

(١) فتح الباري (٣/٤٦٢).

(٢) انظر: تهذيب الكمال للمزي (٢١/٢٣٢ ـ ٢٣٦).

ثمَّ إنَّ المشروع هو تقبيل الحجر الأسود فقط أو استلامه باليد إن لم يتمكّن من التقبيل، أو الإشارة إليه إن لم يتمكّن من الأمرين، وكذلك يُشرع استلام الركن اليماني، ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: « لم أَرَ رسول الله ﷺ يستلم من البيت إلاَّ الركنين اليمانيين »[1]، وبهذا يُعلم أنَّه لا يُشرع استلام شيء من البيت سوى الركنين اليمانين، وهما الحجر الأسود والركن اليماني، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « ولا يَستلم من الأركان إلاَّ الركنين اليمانيين دون الشاميين، فإنَّ النبي ﷺ إنَّما استلمهما خاصة؛ لأنَّهما على قواعد إبراهيم، والآخران هما داخل البيت، فالركن الأسود يُستلم ويُقبَّل، واليماني يُستلم ولا يُقبَّل، والآخران لا يُستلمان ولا يُقبَّلان، والاستلام هو المسح باليد، وأما سائر جوانب

---

(١) صحيح البخاري (رقم:١٦٠٩)، وصحيح مسلم (رقم:١٢٦٩).

البيت ومقام إبراهيم وسائر ما في الأرض من مساجد وحيطانها ومقابر الأنبياء والصالحين كحجرة نبيّنا ﷺ ومغارة إبراهيم، ومقام نبيّنا ﷺ الذي كان يصلّي فيه، وغير ذلك من مقابر الأنبياء والصالحين وصخرة بيت المقدس فلا تُستلم، ولا تُقبّل باتفاق الأئمة »[١].

ولهذا فإنَّ من الدروس العظيمة والفوائد الجليلة التي يفيدها المسلم في هذا المقام أنَّ التقبيل والاستلام لا يُشرع إلاَّ في هذا المكان؛ إذ لم تأت النصوص بمشروعية هذا العمل في غير هذين الموضعين، والمسلم إنَّما يقوم بذلك طاعة لله واتّباعاً لرسوله ﷺ، لا لاعتقاد منه أنَّ فيهما جلبَ نفع أو دفع ضرٍّ كما سبق بيان ذلك من خلال كلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب التي قالها أمام الناس معلّماً لهم وموجِّهاً عندما قبَّل الحجر الأسود.

وقد دلّت النصوص المتقدّمة على أنَّ التمسّح بحيطان

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٦/١٢١).

الكعبة غيرِ الركنين اليمانيين وتقبيل شيء منها غير الحجر الأسود ليس بسنة، ودلّت أيضاً على أنَّ استلام مقام إبراهيم وتقبيلَه ليس بسنّة؛ إذ لم يُؤثر عن النبي ﷺ شيء من ذلك، وإذا كان هذا لا يُشرع في الكعبة نفسها، ومعلوم أنَّ جميع المساجد والأماكن حرمتها دون الكعبة، ولا يُشرع في مقام إبراهيم الذي قال الله فيه: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ [البقرة ١٢٥]، ومعلوم أنَّ مقام إبراهيم الذي بالشام وغيرها وسائر مقامات الأنبياء دون هذا المقام الذي أمر الله باتّخاذه مُصلّى، ومع ذلك لا يُشرع مسحه ولا تقبيله لعدم وجود دليل على مشروعية ذلك، فعلم أنَّ سائر المقامات لا تُقصد للصلاة فيها، ولا يُتمسّح بها، ولا يقبّل شيء منها، بل لا يقبّل ما على وجه الأرض إلاَّ الحجر الأسود[1].

وأمَّا ما يفعله بعض الجهال الذين يتهافتون على

---

(١) انظر: الفتاوى لابن تيمية (٤٧٦/١٧).

الأضرحة والقباب وغيرها، فيقبّلونها ويتمسّحون بها، ويتبرّكون بها ويطلبون منها المدد والعون ونحو ذلك، فكلٌّ ذلك ليس من الدين في شيء، بل هو من الضلال المبين والبهتان العظيم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وأمّا التمسّحُ بالقبر أيَّ قبر كان وتقبيلُه وتمريغُ الخدِّ عليه فمنهيٌّ عنه باتّفاق المسلمين، ولو كان ذلك من قبور الأنبياء، ولم يفعل هذا أحد من سلف الأمة وأئمّتها، بل هذا من الشرك »[1].ا.هـ.

۞۞۞

(١) الفتاوى (٢٧/٩١ - ٩٢).

الثامن: في بيان وجوب لزوم السنة والأخذ بهدي الرسول ﷺ

إنَّ من الدروس العظيمة والفوائد الجليلة التي يفيدها الحاجُّ من حجِّهم لبيت الله الحرام معرفة أهميّة السنّة وضرورة التقيّد بها في جميع أعمال الحج، وهذا يظهر جليًّا في حال كثيرٍ من الحجّاج، فتراهم يُقبلون على مجالس الذِّكر وحلق العلم، ويُكثِرون من سؤال العلماء عن صفة الحج وكيفيته وأركانه وواجباته ونواقضه ومبطلاته باهتمام بالغ وتحرٍّ دقيق، ولا سيما من يستشعر في حجِّه قولَ النبيِّ ﷺ: « خذوا عني مناسككم »[1]، فالحج لا يكون مقبولاً عند الله إلاَّ إذا أخذ المسلم فيه بطريقة الرسول ﷺ، ولزم فيه هديَه، واقتدى فيه بسنّتِه دون إفراطٍ أو تفريطٍ، ودون غلوٍّ أو جفاءٍ، ودون زيادةٍ

---

(١) صحيح مسلم (رقم:١٢٩٧).

أو تقصير، فإذا ألـزم المسلمُ نفسَه في حجّه بسنّة النبي ﷺ، وقيّدها بهديه أفاد من ذلك أنَّ لـزوم السنة واتّباع الهدي مأمور به في كلِّ طاعة، فكما أنّه متحتّم في الحج على كلِّ أحد الأخذ بمناسكه ﷺ، فإنّه متحتّم على كلِّ أحد الأخذ بهديه في كلِّ طاعة، ولهذا قال ﷺ في شأن الصلاة: « صلّوا كما رأيتموني أصلّي »[١]، وقال عموماً في شأن كلِّ طاعة: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ »[٢]، وفي رواية: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ »[٣].

فكل عمل لا يكون على هدي الرسول ﷺ فإنَّ الله لا يقبله كما دلَّ على ذلك منطوق قوله ﷺ: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ »، فإنّه يدل على أنَّ كلَّ بدعة أُحدثت في الدين ليس لها أصل في الكتاب ولا في

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٦٣١).
(٢) صحيح مسلم (رقم:١٧١٨).
(٣) صحيح البخاري (رقم:٢٦٩٧)، وصحيح مسلم (رقم:١٧١٨).

السنة، سواء كانت من البدع العلمية القولية أو من البدع العملية التعبّدية، فمن أخبر بغير ما أخبر الله به ورسوله ﷺ أو تعبَّد بشيء لم يأذن الله به ولا رسوله ﷺ ولم يشرعه، فإنَّه يكون مردوداً على صاحبه غير مقبول، كما أنَّ الحديث يدلُّ بمفهومه أنَّ من عمل عملاً عليه أمر الله ورسوله، وهو التعبّد لله بالعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة من واجب ومستحب، فعملُه مقبول وسعيُه مشكور.

وروى أبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرُهم عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: « صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظةً بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، كأنَّها موعظة مودِّع فأوصِنا. فقال: أوصيكم بتقوى الله ﷻ والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد، فإنَّه من يعش منكم

فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ بدعة ضلالة »[1].

وقوله ﷺ في هذا الحديث: « كلَّ بدعة ضلالة » هو من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله ﷺ: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ »، فكلُّ من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالةٌ، والدين بريء منه، وهو مردود على صاحبه غير مقبول منه، فدِين الله مبنيٌّ على أصلين عظيمين وأساسين متينين.

أحدهما: ألاّ نعبد إلاّ الله وحده لا شريك له.

والثاني: أن لا نعبده إلاّ بما شرعه على لسان رسوله

---

(١) سنن أبي داود (رقم:٤٦٠٧)، وسنن الترمذي (رقم:٢٦٧٦)، وسنن ابن ماجه (رقم:٤٢،٤٤).

ﷺ، لا نعبده بالأهواء والبدع، قال الله تعالى: ﴿ثم جعلناك علي شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً﴾ [الجاثية ١٨]، وقال تعالى: ﴿أم لهم شركآء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ [الشورى ٢١]، فليس لأحدٍ أن يعبدَ الله إلاَّ بما شرعه رسوله ﷺ من واجب ومستحب، لا نعبده بالأمور المحدثة المبتدعة التي لا أصل لها في الدين ولا أساس لها من الشرع، وليس لأحدٍ أن يعبد إلاَّ الله وحده، فلا يُصلَّى إلاَّ لله، ولا يُصام إلاَّ له، ولا يُحجُّ إلاَّ إلى بيته، ولا يُتوكَّل إلاَّ عليه، ولا يصرف شيء من العبادة إلاَّ له[1]، وقد جمع الله بين هذين الأصلين العظيمين في قوله سبحانه: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً﴾ [الكهف ١١٠]، فالعمل الصالح هو الموافق للشرع المطهّر، والخالصُ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١/ ٨٠ - ٨١).

هو الـذي لم يُرد بـه إلاّ وجـه الله، وهمـا ركنَـا العمـل المتقبّل، فإنّ العمـل إذا كـان خالصـاً ولم يكـن صوابـاً لم يُقبل، وإذا كان صوابـاً ولم يكـن خالصـاً لم يُقبـل حتـى يكون خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة.

فـالواجب علـى كـلِّ مسـلم يرجـو لنفسـه الفـوز والسعادة في الدنيا والآخرة أن يُلزم نفسَه بهدي الرسـول ﷺ، وأن يقيّد عملَـه بسـنّته، وأن يحـذرَ تمـام الحـذر مـن مفارقة هديه، ومخالفـة سـنّته واتبـاع غـير سبيله؛ إذ هـو صلوات الله وسلامه عليه القـدوةُ والأسـوة لأمَّتـه، كمـا قال الله تعالى في شأنه: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ [الأحزاب ٢١]، وقـال تعـالى: ﴿النبيُّ أولى بـالمؤمنين مـن أنفسهم﴾ [الأحزاب ٦]، أي: « هو أحقُّ بهـم في كـلِّ أمـور الديـن والدنيـا، وأولى بهـم مـن أنفسـهم فضـلاً عـن أن يكون أولى بهم من غيرهم، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم وإن كانوا محتاجين إليها، ويجب عليهـم

أن يحبُّوه زيادة على حبِّهم لأنفسهم، ويجب عليهم أن يقدِّموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم، وبالجملة فإذا دعاهم النبي ﷺ بشيء ودعتهم أنفسُهم إلى غيره وجب عليهم أن يقدِّموا ما دعاهم إليه ويؤخِّروا ما دعتهم أنفسُهم إليه، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، ويقدِّموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم وتطلبه خواطرُهم »[1].

ولا ريب أنَّ هذا يتطلّب من المسلم اجتهاداً في معرفة السنة، وبذلاً للوقت في سبيل معرفة هدي الرسول ﷺ، وذلك عن طريق سؤال أهل العلم والجلوس في حلق الذِّكر التي يبيّن فيها الحلالُ والحرام، وقراءة الكتب النافعة والمؤلفات المفيدة المشتملة على بيان ذلك، ليتسنّى للمسلم بعد ذلك القيامُ بالعبادة على وجه صحيح ونهج سليم، موافقٍ لهدي الرسول الكريم ﷺ.

---

(١) فتح القدير (٤/٢٦١).

التاسع: في يوم عرفة

لا ريب أنَّ يوم عرفة يومٌ عظيمٌ من أيام ا لله المباركة، ومجمعٌ كبيرٌ من مجامع الخير والإيمان والتقوى، وموسمٌ رحبٌ جليلٌ من مواسم الطاعة والعبادة، يومٌ تكثر فيه العبرات، وتتوالى فيه الدعوات، وتتنزّل فيه الرحمات، وتُقال فيه العثرات، وتُغفر فيه الزلاّت، يوم رجاء وخشوع، وذلّ وخضوع، إنَّه يومٌ كريمٌ مباركٌ، لم تطلع الشمس على يوم أفضل منه، قد خُصَّ بمزايا كريمةٍ، وخصائصَ عظيمةٍ، وصفاتٍ جليلةٍ، ليس من اليسر حصرها، ولا من الممكن استقصاؤها.

إنَّه اليوم الذي أكمل ا لله فيه لهذه الأمة الدين، وأتمَّ فيه لهم النعمة؛ إذ فيه نزل قول ا لله تعالى: ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ [المائدة ٣]، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام.

روى البخاري ومسلم عن طارق بن شهاب قال: « جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضي ا لله

عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتّخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأيُّ آية؟ قال: قوله: ﴿اليوم أُكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾، فقال عمر: وا لله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول ا لله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول ا لله ﷺ، عشية عرفة في يوم جمعة »[1].

وفي هذا اليوم الكريم المبارك يكثر عُتقاء ا لله من النار، ويجود فيه على عباده المؤمنين، ويباهي بهم ملائكته المقرّبين، روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي ا لله عنها: أنَّ النبي ﷺ قال: « ما من يومٍ أكثر من أن يعتق ا لله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنَّه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء »[2]، قال

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٤٦٠٦)، وصحيح مسلم (رقم:٣٠١٧).

(٢) صحيح مسلم (رقم:١٣٤٨).

ابن عبد البر رحمه الله: « وهذا يدل على أنَّهم مغفورٌ لهم؛ لأنَّه لا يُباهي بأهل الخطايا والذنوب إلاَّ من بعد التوبة والغفران »[١].

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: « إنَّ الله تعالى يُباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة، يقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً »[٢].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في مِيمِيَّته الشهيرة:

فللّه ذاك الموقفُ الأعظمُ

كموقف يوم العرض بل ذاك أعظم

ويدنو به الجبَّار جلَّ جلاله

يباهي بهم أملاكَه فهو أكرم

يقول: عبادي قد أتوني محبّة

وإنّي بهم أجود وأرحم

---

(١) التمهيد (١/١٢٠).

(٢) المسند (٢/٢٢٤).

فأُشهدكم أنّي قد غفرتُ ذنوبَهم
وأعطيتهم ما أملوه وأنعم
فبُشراكم يا أهل ذا الموقف الذي
به يغفر الله الذنوب ويرحمُ

وقف الفضيل بن عياض رحمه الله بعرفة فنظر إلى نشيج الناس وبكائهم عشية عرفة فقال: « أرأيتم لو أنَّ هؤلاء صاروا إلى رجل فسألوه دانِقاً، أكان يرُدُّهم؟ قالوا: لا، قال: والله، لَلمغفرةُ عند الله أهونُ من إجابة رجل لهم بدانِق »(١).

ولهذا فإنَّه ينبغي للمسلم الراغب في الربح والمغنم في هذا اليوم المبارك أن يكون مخبتاً لربّه سبحانه، متواضعاً له، خاضعاً لجنابه، منكسراً بين يديه، يرجو رحمته ومغفرته، ويخاف عذابه ومقته، تائباً إليه من كلِّ ذنب اكتسبته يداه، وكلِّ خطيئة مشت إليها قدماه، غيرَ

---

(١) مجلسٌ في فضل يوم عرفة لابن ناصر الدين الدمشقي (ص:٦٣).

مضيّعٍ لوقته في هذا الموقف العظيم بالذهاب هنا وهناك، أو بالحديث مع هذا وذاك، بل يكون مقبلاً على ربّه ومولاه، مكثراً من الذِّكر والدعاء والاستغفار والتضرّع، وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنّه قال: «خير الدعاء دعاءُ يوم عرفة، وخير ما قلته أنا والنبيّون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير»(١)، فيوم عرفة يوم الدعاء، وأفضل الذِّكر لا إله إلا الله، فكان ﷺ يُكثر من أفضل الذِّكر في أفضل الأيام؛ لأنَّ سيّد الأيام هو يوم عرفة، وسيّد الأذكار هو لا إله إلا الله، فالإكثار من سيّد الأذكار في سيّد الأيام هو في غاية المناسبة والتوافق.

إنَّ لا إله إلا الله هذه الكلمةَ العظيمةَ التي كان رسول الله ﷺ يُكثر من قولها في يوم عرفة هي أفضلُ

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (رقم:٣٥٨٥) من حديث عبد الله ابن عمرو. وحسنه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/٧،٨)، وقال: «الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد».

الكلمات، وأجلّها على الإطلاق، وهي العروة الوثقى وكلمة التقوى ومفتاح دار السعادة، وأصل الدين وأساسه، ورأس أمره؛ لأجلها قامت الأرض والسموات، وخُلقت الخليقة وأُرسلت الرسل وأنزلت الكتب، وفضائل هذه الكلمة وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون، بل لها من الفضائل والمزايا ما لا يخطر ببال، ولا يدور في خيال، لكن يجب على المسلم أن يعلم أنَّ لا إله إلا الله لا تُقبل من قائلها بمجرّد نطقه لها بلسانه فقط دون قيام منه بحقّها وفرضها، ودون استيفاء لأُسسها وشروطها، فليست لا إله إلا الله اسماً لا معنى له، أو قولاً لا حقيقة له، أو لفظاً لا مضمون له، بل إنَّ لهذه الكلمة العظيمة مدلولاً لا بدّ من فهمه، ومعنى لا بدّ من ضبطه، وغايةً لا بدّ من تحقيقها؛ إذ غير نافع بإجماع أهل العلم النطق بهذه الكلمة من غير فهم لمعناها، ولا عمل بما تقتضيه، كما قال الله تعالى: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ [الزخرف ٨٦]، أي إلاَّ من شهد بلا إله إلا

الله وهم يعلمون بقلوبهم معنى ما شهدوا به بألسنتهم.

وهذا ولا شك أمرٌ في غاية الأهمية يجدر بكلِّ مسلم أن يُعنى به غاية العناية، ويهتمّ به تمام الاهتمام؛ إذ إنَّ لا إله إلا الله لا تنفع إلاَّ من عرف مدلولها نفياً وإثباتاً، واعتقد بذلك وعمل به، أمَّا من قالها وعمل بها ظاهراً من غير أعتقاد فهو المنافق، وأمَّا من قالها وعمل بضدّها وخلافها من الشرك فهو الكافر، وكذلك من قالها وارتدّ عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها فإنّها لا تنفعه ولو قالها ألف مرّة، وكذلك من قالها وهو يصرف أنواعاً من العبادة لغير الله كأن يدعوَ غيرَ الله أو يستغيث بغيره أو يطلبَ من غيره المدَدَ والعونَ والنَّصر فيما لا يقدر عليه إلاَّ الله، ونحوَ ذلك، فمن صرف مما لا يصلح إلاَّ لله من العبادات لغير الله فهو المشرك بالله العظيم، ولو نطق بلا إله إلا الله؛ إذ إنَّ هذه الكلمة العظيمة تعني إخلاص العبادة كلِّها لله وعدمَ الإشراكِ به، والإقبالَ على الله وحده لا شريك له خضوعاً

وتذلّلاً، وطمعاً ورَغباً، وإنابةً وتوكّلاً، ودعاءً وطلباً، فصاحب لا إله إلا الله لا يسأل إلاَّ الله، ولا يستغيث إلاَّ بالله، ولا يتوكل إلاَّ على الله، ولا يرجو غير الله ولا يذبح إلاَّ لله، ولا يصرف شيئاً من العبادة لغير الله، ويكفر بجميع ما يعبد من دون الله، ويبرأ إلى الله من ذلك[1].

۞۞۞

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص:٧٨).

العاشر: وجوب الإخلاص لله في الذبح

إنَّ من أيّام الله العظيمة يومُ النّحر، اليومُ العاشر من ذي الحجة يومُ عيد الأضحى المبارك، وقد سمّي هذا اليوم بيوم النّحر لأنَّ المسلمين يتقرّبون فيه إلى الله بنحر بهيمة الأنعام، فالحجاج في هذا اليوم ينحرون هداياهم، والمسلمون في شتى بقاع الأرض ينحرون ضحاياهم، أولئك يتقرّبون إلى الله بنحر الهدايا وهؤلاء يتقرّبون إلى الله بنحر الضحايا، قال الله تعالى: ﴿ولكلّ أمّة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشّر المخبتين الذين إذا ذُكر الله وَجلت قلوبهم والصابرين علَى ما أصابهم والمقيمي الصلاةِ ومما رزقناهم ينفقون والبُدْنَ جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليه صوافّ فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ كذلك سخّرناها لكم لعلّكم تشكرون لن ينال الله لحومها

ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخّرها لكم لتُكبّروا الله على ما هداكم وبشّرِ المُحسنين﴾ [الحج ٣٤ - ٣٧]، أيَ: ليس المقصودُ ذبحَها فقط بَل إنَّما شَرع لكم نَحرَ هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها، فإنّه الخالق الرازق لا أنَّه يناله شيء من لحومها ولا دمائها فإنّه تعالى هو الغني عمّا سواه ﴿ولكن يناله التقوى منكم﴾ أي الإخلاصُ فيها والاحتساب والنيّة الصالحة وابتغاء وجه الله بالعمل، وفي هذا أعظم حثٍّ وترغيبٍ على الإخلاص في النّحر وأن يكون القصد فيه وجه الله وحده، إذ إنَّ الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلاّ الخالص الذي لا يُبتغى فيه إلاّ وجهه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿قل إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أُمرتُ وأنا أوّل المسلمين﴾ [الأنعام ١٦٢،١٦٣].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: « يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنَّه مخالف لهم في ذلك، فإنَّ صلاته لله ونُسكه

على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى ﴿فصلِّ لربّك وانحر﴾ أي: أخلص له صلاتك وذبيحتك، فإنَّ المَشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عمّا هم فيه والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى، قال مجاهد في قوله ﴿إنَّ صلاتي ونسكي﴾ قال: « النسك: الذبح في الحج والعمرة ».

وقال الثوري عن السدّي عن سعيد بن جبير ﴿ونسكي﴾ قال: « ذبحي »، وكذا قال السدّي والضحاك » ا.هـ[1].

والذبح عبادة عظيمة من أنواع العبادات التي يتقرّب بها المسلمون إلى ربِّهم عَزَّ وَجَلَّ نُسُكاً لله تعالى من هَديٍ أو أُضحيةٍ أو عقيقةٍ أو نذر أوغير ذلك، فلا يجوز صرفُ هذه العبادة لغير الله كما لا يجوز صرفُ أيِّ عبادةٍ لغيره سبحانه، وقد ثبت في الصحيح من حديث أمير المؤمنين

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٣٧٧).

عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدّثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: « لعن الله مَن ذبح لغير الله، ولعن الله مَن لعن والديه، ولعن الله من آوى مُحدِثاً، ولعن الله من غيَّرَ منارَ الأرض »(١)، واللّعنُ هو الطردُ والإبعاد من رحمة الله، وأخطرُ هذه الأمور الأربعة التي يستحقُّ فاعلها هذه العقوبة هو الذّبح لغير الله؛ ولهذا بدأ به رسول الله ﷺ، ممّا يدلّ على الخطورة البالغة لهذا الأمر، إذ إنَّ الذّبح لغير الله شركٌ، والأمورُ المذكورةُ معه في الحديث إنّما هي من كبائر الإثم ولا تصل إلى رتبة الشرك، وكلُّ ذبحٍ لغير الله شركٌ ولو كان المذبوحُ المتقرّب به تافهاً حقيراً كالذباب ونحوه فكيف بمن يقرِّب نفائس الأنعام وأطايبها.

روى الإمام أحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية وغيرهما عن سلمان الفارسي رضي الله عنه موقوفاً عليه بإسنادٍ صحيحٍ أنّه قال: « دخل رجلٌ الجنّةَ في ذباب

---

(١) صحيح مسلم (رقم:١٩٧٨).

ودخل آخرُ النّارَ في ذباب، قالوا: وكيف ذاك؟ قال: مرّ رجلان ممّن كان قبلكم على ناس معهم صنمٌ لا يمرّ بهم أحدٌ إلاّ قرَّب لصنمهم، فقالوا لأحدهما: قرِّب شيئاً، قال: ما عندي شيء، قالوا: قرِّب ولو ذباباً فقرّب ذباباً ومضى فدخل النّار، وقالوا للآخر: قرِّب، قال: ما كنتُ لأُقرِّب لأحدٍ شيئاً دون الله عز وجل فضربوا عنقه فدخل الجنّة »[1].

وهذا ممّا يبيّن عظم الشرك وشدّة خطره ولو في الشيء القليل وأنّه يوجبُ النّار، فهذا الرجل الأوّل لما قرّب لهذا الصنم أرذل الحيوان وأخسّه وهو الذباب كان جزاؤه النّار؛ لإشراكه في عبادة الله، فإذا كان هذا فيمن قرّب ذباباً، فكيف بمن يستسمن الإبل وغيرَها ليتقرَّب بنحرها لمن كان يعبده من دون الله مِن قبرٍ أو مشهد أو حجر أو شجر أو غير ذلك.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله في كتابه شرح

---

(١) الزهد (ص:٣٢،٣٣)، والحلية (١/٢٠٣).

الصدور: « ومن المفاسد البالغة إلى حدّ يرمي بصاحبه إلى وراء حائط الإسلام، ويلقيه على أمِّ رأسه من أعلى مكان الدين أنَّ كثيراً منهم يأتي بأحسن ما يملكه من الأنعام وأجود ما يحوزه من المواشي فينحره عند ذلك القبر متقرّباً به إليه راجياً ما يضمر حصوله منه، فيهلّ به لغير الله، ويتعبّد به لوثنٍ من الأوثان، إذ إنّه لا فرق بين النحائر لأحجار منصوبة يسمونها وثناً، وبين قبر لميِّت يسمونه قبراً، ومجرّد الاختلاف في التسمية لا يغني من الحق شيئاً، ولا يؤثر تحليلاً ولا تحريماً، فإنَّ مَن أطلق على الخمر غير اسمها وشربها كان حكمه حكم من شربها وهو يسميها باسمها، بلا خلاف بين المسلمين أجمعين.

ولا شكّ أنَّ النّحر نوعٌ من أنواع العبادة التي تعبّد الله العباد بها، كالهدايا والفدية والضحايا، فالمتقرِّب بها إلى القبر والناحر لها عنده لم يكن له غرض بذلك إلاّ تعظيمه وكرامته واستجلاب الخير منه واستدفاع الشرّ به، وهذه عبادة لا شك فيها، وكفاك من شرّ سماعه ولا

حول ولا قوّة إلاّ با لله العليّ العظيم، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون، والنبي ﷺ يقول: « لا عقر في الإسلام »، قال عبد الرزاق [الصنعاني]: « كانوا يعقرون عند القبر، يعني بقراً وشياهاً » رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أنس ابن مالك رضي الله عنه » . ا.هـ كلام الإمام الشوكاني رحمه الله[1]، وقد أبلغ فيه رحمه الله بالنصيحة وأحسن في التحذير من هذا الأمر الخطير، فنسأل الله الكريم أن يقينا جميعاً من الوقوع في شيء من ذلك، وأن يجعلَ أعمالنا كلّها خالصة لوجهه الكريم، مطابقة لسنّة نبيّه محمد ﷺ إنّه جوادٌ كريم.

۞۞۞

---

(١) شرح الصدور للشوكاني (ضمن الجامع الفريد ص:٥٢٩ ـ ٥٣٠).

الحادي عشر: في حلق الرأس

إنَّ أعمال يوم النحر اليوم العاشر من ذي الحجة أربعةُ أعمال معلومةٍ مشهورةٍ، وهي الرمي، ثمَّ النحر، ثمَّ الحلق، ثمَّ الطواف، والحديث هنا سيكون عن حلق الرأس أو تقصيره تعبّداً لله وطاعةً له وتقرّباً إليه في هذا اليوم العظيم، والحلق هو إزالةُ شعر الرأس كاملاً، والتقصير هو التخفيف من شعر الرأس كلِّه، والحلق أو التقصير واجب من واجبات الحج والعمرة، لا يجوز تركه، والدليل قوله تعالى: ﴿لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصّرين لا تخافون﴾ [الفتح ٢٧]، قال ابن قدامة رحمه الله: « ولو لم يكن من المناسك لما وصفهم به »[١].

روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: « لما قدم النبي ﷺ مكة أمر أصحابه أن

---

(١) المغني (٥/٣٠٥).

يطوفوا بالبيت وبالصفا والمروة، ثم يحلّوا ويحلقوا أو يقصروا»[١]، فهو واجب من واجبات الحج والعمرة، فمن لم يحلق أو يقصر لزمه جبران هذا الواجب بدم، وهو إشعارٌ بانتهاء مدّة الإحرام واقتداء بفعل الرسول عليه الصلاة والسلام حيث حلق رأسه وأمر أصحابه بالحلق إلقاء للتفث وإزالة للشعث، وهو وضع للنواصي بين يدي ربّها خضوعاً لعظمته وتذلّلاً لعزّته، وهو من أبلغ أنواع العبودية لله ﷻ.

وعندما يقوم المسلم بهذه الطاعة العظيمة والعبادة الجليلة امتثالاً لله واتباعاً لرسول الله ﷺ يجب عليه أن يعلم أنَّ حلق الرأس أو تقصيره على وجه التعبّد والتقرّب لا يجوز القيام به لغير الله سبحانه وتعالى، وقد سئل الإمام الجليل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن أقوام يحلقون رؤوسهم على أيدي الأشياخ، وعند القبور التي

---

(١) صحيح البخاري (رقم: ١٧٣١).

يعظّمونها ويعدّون ذلك قُربة وعبادة: هل هذا سنة أو بدعة؟ وهل حلق الرأس مطلقاً سنة أو بدعة؟ فقال رحمه الله: « حلق الرأس على أربعة أنواع:

أحدها: حلقه في الحج والعمرة فهذا ممّا أمر الله به ورسوله ﷺ، وهو مشروع ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، قال تعالى: ﴿لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصّرين لا تخافون﴾، وقد تواتر عن النبي ﷺ أنّه حلق رأسه في حجّه وفي عمره، وكذلك أصحابه، منهم مَن حلق ومنهم من قصّر، والحلق أفضل من التقصير؛ ولهذا قال ﷺ: « اللّهمَّ اغفر للمحلّقين. قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: اللّهمَّ اغفر للمحلّقين. قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: اللّهمَّ اغفر للمحلّقين. قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: والمقصرين »[1]، وقد أمر الصحابةَ

---

(١) صحيح البخاري (رقم:١٧٢٧)، وصحيح مسلم (رقم:١٣٠١).

الذين ساقوا الهدي في حجّة الوداع أن يقصروا رؤوسهم للعمرة إذا طافوا بالبيت، وبين الصفا والمروة، ثم يحلقوا إذا قضوا الحج، فجمع لهم بين التقصير أولاً وبين الحلق ثانيا.

والنوع الثاني: حلق الرأس للحاجة، مثل أن يحلقه للتداوي، فهذا أيضاً جائز بالكتاب والسنة والإجماع، فإنَّ الله رخّص للمحرم الذي لا يجوز له حلق رأسه أن يحلقه إذا كان به أذى كما قال تعالى: ﴿**ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك**﴾ [البقرة ١٩٦]، وقد ثبت باتفاق المسلمين حديث كعب بن عجرة لما مرَّ به النبي ﷺ في عمرة الحديبية والقمل ينهال من رأسه فقال: « أيؤذيك هوامّك؟ قال: نعم. فقال: احلق رأسك، وانسك بشاة، أو صُم ثلاثة أيام، أو أطعم فَرَقاً بين ستة مساكين »[1]، وهذا الحديث متفق على

---

(١) صحيح البخاري (رقم:١٨١٤)، وصحيح مسلم (رقم:١٢٠١).

صحّته متلقًى بالقَبول من جميع المسلمين.

والنوع الثالث: حلقه على وجه التعبّد والتديّن والزهد من غير حج ولا عمرة، مثل ما يأمر بعض الناس التائب إذا تاب أن يحلق رأسه، ومثل أن يُجعلَ حلقُ الرأس شعارَ أهل النسك والدين أو من تمام الزهد والعبادة، أو يُجعلَ من يحلق رأسَه أفضلَ ممّن لم يحلقه، أو أدين، أو أزهد، أو أنَّ يقصر من شعر التائب كما يفعل بعض المنتسبين إلى المشيخة إذا توَّب أحداً أن يقص بعض شعره، ويعين الشيخ صاحب مقص وسجادة فيجعل صلاته على السجادة، وقصّه رؤوس الناس من تمام المشيخة التي يصلح بها أن يكون قدوة يتوِّب التائبين، فهذا بدعة لم يأمر الله بها ولا رسوله ﷺ، وليست واجبة ولا مستحبّة عند أحد من أئمة الدين، ولا فعلها أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا شيوخ المسلمين المشهورين بالزهد والعبادة، لا من الصحابة ولا من التابعين ولا تابعيهم ومن بعدهم ...

وقد أسلم على عهد النبي ﷺ من أسلم[١]، ولم يكن يأمرهم بحلق رؤوسهم إذا أسلموا، ولا قصّ النبي ﷺ رأس أحد، ولا كان يصلي على سجادة، بل كان يصلّي إماماً بجميع المسلمين يصلّي على ما يصلّون عليه، ويقعد على ما يقعدون عليه، لم يكن متميّزاً عنهم بشيء يقعد عليه لا سجادة ولا غيرِه ... ومن اعتقد البدع التي ليست واجبة ولا مستحبّة قربة وطاعة وطريقاً إلى الله، وجعلها من تمام الدين ومما يُؤمر به التائب والزاهد والعابد فهو ضال خارج عن سبيل الرحمن، متّبع لخطوات الشياطين)).

ثم ذكر رحمه الله النوع الرابع من الحلق، وهو أن يحلق رأسه في غير النسك لغير حاجة ولا على وجه التقرب والتديّن، وذكر أنَّ لأهل العلم فيه قولين، هما روايتان عن الإمام أحمد.

أحدهما: أنّه مكروه، وهو مذهب مالك وغيره.

---

(١) في الأصل: ((جميع من في الأرض)).

والثاني: أنَّه مباح، وهو المعروف عند أصحاب أبي حنيفة والشافعي.

ثم ذكر رحمه الله ما احتج به أهل كلِّ قول[(١)].

وذكر الإمام ابن القيّم نحو هذا التقسيم المتقدّم في كتابه زاد المعاد، وذكر أنَّ من أنواع حلق الرأس ما هو بدعة وشرك، وهو حلق الرأس لغير الله سبحانه كما يحلقها المريدون لشيوخهم، فيقول أحدهم: أنا حلقت رأسي لفلان، وأنت حلقته لفلان، وهذا بمنزلة أن يقول: سجدتُ لفلان، فإنَّ حلق الرأس خضوع وعبودية وذلّ؛ ولهذا كان من تمام الحج.

ثم ذكر رحمه الله أنَّ شيوخ الضلال زيّنوا لمريديهم حلق رؤوسهم لهم كما زيّنوا لهم السجود لهم[(٢)]، وكلُّ ذلك من الشرك المبين، ومن البهتان العظيم، نسأل الله السلامة.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢١/١١٦ ـ ١١٩).

(٢) زاد المعاد (٤/١٥٩ ـ ١٦٠).

الثاني عشر: الإخلاص لله في الدعاء

إنَّ من العبادات العظيمة التي يكثرُ إقبالُ المسلمين عليها في الحج وتعظمُ عنايتُهم بها فيه، الدعاءَ الذي هو أجلُّ أنواع العبادة وأفضلُها، وقد وصفه ﷺ في الحديث الصحيح بأنَّه هو العبادة؛ لِعظم مكانه منها ولرِفعة شأنه فيها، ولذا وردت النصوصُ الكثيرةُ في القرآن والسنة الدالَّةُ على عظيم شأنه ورفيع مكانته، والمشتملةُ على التنويه به والحثِّ عليه والترغيبِ فيه بوجوهٍ مختلفةٍ من الدلالة بالأمر به تارةً، وببيانِ مكانته ومنزلته تارةً، وبالثناءِ على أهله والقائمينَ به أُخرى، وبذكرِ عظم ثوابهم وتنوُّع أجورهم تارة، وبالتحذير في بعض المواطن من التهاون به أو الاستكبار عنه.

يقول الله تعالى: ﴿ادعوا ربَّكم تضرُّعاً وخُفيةً إنَّه لا يُحبُّ المُعتدِين، ولا تُفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمَعاً إنَّ رحمةَ اللهِ قريبٌ منَ المحسنينَ﴾

[الأعراف ٥٥،٥٦]، ويقول تعالى: ﴿هو الحيُّ لا إله إلاّ هو فادعوه مخلصينَ له الدِّين الحمدُ لله ربِّ العالمينَ﴾ [غافر ٦٥]، ويقولِ تعالى: ﴿وإذا سألَك عبادي عنِّي فإنِي قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الدَّاعِ إذا دعانِ فليستجيبوا لِي وليؤمنوا بي لعلهم يرشُدونَ﴾ [البقرة ١٨٦]، ويقول تعالى: ﴿وقال ربُّكمُ ادعوني أستجبْ لكم إنَّ الذين يستكبرونَ عن عبادتي سيدخلونَ جهنمَ داخرينَ﴾ [غافر ٦٠]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

وممّا يزيد في اهتمام الحجّاج بالدعاء ويُقوِّي إقبالَهم عليه في الحجِّ أنَّه قد اجتمع لهم فيه فضلُ المكان وشرفُه مع فضلِ الزمان وشرَفِه مع ما يعتري أيضاً قلوبَهم إذ ذاكَ من الرِّقَّة والخشوع والإقبال على الله ﷻ ولا سيَما في يومِ عرَفةَ الذي هو أعظمُ الأيّام وأشرفُها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « فإنَّه من المعلوم أنَّ الحجيجَ عشيَّةَ عرفةَ ينزلُ على قلوبهم من الإيمان والرّحمة والنُّور والبرَكة ما لا يمكنُ التعبيرُ به » اهـ[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٣٧٤).

ولذا ثبت عن النَّبيِّ ﷺ في تعظيم شأن الدعاء يومَ عرَفةَ وبيانِ فضله أنَّه قال: « خيرُ الدعاء دعاءُ يومِ عرفة »(١).

قال ابن عبد البر رحمه الله: « وفيه ـ أي هذا الحديث ـ من الفقه أنَّ دعاءَ يوم عرفة أفضلُ من غيره ... وفي الحديث دليلٌ على أنَّ دعاءَ يوم عرفة مجابٌ كلُّه في الأغلب » ا.هـ(٢).

وفي الحج أمكنةٌ خاصةٌ ينبغي للمسلم أن يقف بها ويتحرّى الدعاء فيها، اقتداءً بالنبي ﷺ حيث ثبت عنه أنَّه كان يقفُ فيها ويستقبلُ القِبلة ويدعو الله ﷻ، وهي بالأخصِّ ستُّ أماكن: في عرَفة كما تقدّم، وفي المشعر الحرام كما قال الله تعالى: ﴿فإذا أفضتم من عرفاتٍ

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (رقم:٣٥٨٥) من حديث عبد الله ابن عمرو. وحسنه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/٧، ٨)، وقال: « الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد ».

(٢) التمهيد (٦/٤١).

فاذكروا اللهَ عند المشعرِ الحرام﴾ [البقرة ١٩٨]، وعلى الصفا والمروة لما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه: «أنَّ النبي ﷺ كان إذا وقف على الصفا يُكبِّر ثلاثاً ويقول: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، يصنع ذلك ثلاث مرّات ويدعو، ويصنع على المروة مثل ذلك»[1].

ويقف بعد رمي الجمرتين الصغرى والوسطى لما ثبت في صحيح البخاري: «أنَّ عبدَ الله ابن عمر رضي الله عنهما كان يرمي الجمرة الدنيا بسبع حصياتٍ يكبِّر على إثرِ كلِّ حصاةٍ، ثمّ يتقدّم حتى يُسْهِلَ فيقومُ مستقبلَ القِبلة، فيقومُ طويلاً ويدعو ويرفعُ يديه، ثمّ يرمي الوسطى، ثمّ يأخذ ذات الشمال فيسهل ويقومُ مستقبلَ القِبلة، فيقومُ طويلاً ويدعو ويرفعُ يديه ويقوم طويلاً، ثمّ يرمي جمرة العقَبة من بطن الوادي، ولا يقفُ عندها، ثمَّ

---

(١) انظر: صحيح مسلم (رقم:١٢١٨).

ينصرفُ فيقول: هكذا رأيتُ النبي ﷺ يفعله »[١].

فهذه ستّةُ مواضعَ ثبت أنَّ النبي ﷺ يقف فيها ويتحرّى الدعاء، ويرفعُ يديه، وعموماً فالدعاء له شأنٌ عظيمٌ ومنزلةٌ عاليةٌ في الحج، بل إنَّ له شأناً بالغاً في العبادات كلّها، بل هو روح العبادة ولُبُّها وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: « الدعاء هو العبادة »[٢].

وإذا كان الدعاء بهذه المنزلة الرفيعة من الدين، وبهذه الرتبة العالية منه، فإنَّ الواجب على المسلم أن تكون عنايتُه بالدعاء عظيمةً، واهتمامه به بالغاً، وأن يكون متقيّداً بشروطه، متأدِّباً بآدابه، حذراً من الوقوع في شيء من موانع إجابته، متحريًّا الأوقات الفاضلة لقبوله، وأهمّ ما ينبغي ملاحظته في هذا الباب العظيم أن يكون دعاء المسلم خالصاً لله ﷻ فلا يدعو إلاَّ الله،

---

(١) صحيح البخاري (رقم:١٧٥١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧١/٤)، والترمذي (رقم:٢٩٦٩)، وغيرهما.

ولا يستغيث إلاَّ با لله، ولا يطلب المـدد والعـون والنصـر والشفاء إلاَّ من ا لله، ولا يسـتعين إلاَّ بـا لله؛ لأنَّ الدعـاء كما تقدّم هو العبـادة، وصـرف العبـادة لغـير ا لله شـرك أكبر، ناقلٌ من الملَّةِ والعياذ بـا لله، قـال ا لله تعـالى: ﴿ولا تدعِ من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرّك فإن فعلتَ فإنك إذا من الظالمين وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو وإن يرِدْكَ بخير فلا رادَّ لفضله يصيب به مـن يشـآء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾ [يونس ١٠٦،١٠٧]، وقـال تعـالى: ﴿ومن يدعُ مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربّه إنه لا يفلح الكافرون﴾ [المؤمنون ١١٧]، وقال تعالى: ﴿هو الحَيُّ لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدّين﴾ [غـافر ٦٥]، وقـال تعـالى: ﴿وأنَّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾ [الجن ١٨]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومـن آداب الدعـاء مـا ذكـره ا لله تعـالى في قولـه: ﴿ادعوا ربّكم تضرّعاً وخفيـةً إنـه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إنَّ

رحمةَ اللّٰه قريبٌ من المحسنين﴾ [الأعراف ٥٥،٥٦].

وإذا جمع المسلم مع الدعاء حضور القلب وجمعيّته بكليّته مع المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة، وصادف خشوعاً في القلب، وانكساراً بين يدي الربِّ، وذُلاًّ له، وتضرّعاً ورقةً، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنّى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدم بين يدي حاجته التوبةَ والاستغفار، ثم دخل على الله، وألحَّ عليه في المسألة، وتملّقه ودعاه رغبةً ورهبةً، وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدّم بين يدي دعائه صدقَه، فإنَّ هذا الدعاء لا يكاد يُردُّ أبداً، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنَّها مظنّةُ الإجابة، أو أنَّها متضمّنةٌ للاسم الأعظم الذي إذا سُئل الله به أعطى، وإذا دُعي به أجاب[1]، ومن ذلك ما ثبت في السنن أنَّ النبيَّ ﷺ سمع رجلاً يقول: « اللّهمَّ إني

---

(١) انظر: الجواب الكافي لابن القيم (ص:٩).

أسألك بأنّي أشهد أنّك أنت الله لا إله إلاَّ أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فقال ﷺ: لقد سألتَ الله باسمه الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب »[١].

۞۞۞

(١) رواه أبو داود (رقم:١٩٤٣)، والترمذي (رقم:٣٤٧٥)، والنسائي في السنن الكبرى (رقم:٧٦٦٦)، وابن ماجه (رقم:٣٨٥٧)، وابن حبان (رقم:٨٩١،٨٩٢).

الثالث عشر: في التحذير من الغلوِّ في الدِّين

إنَّ من الدروس العظيمة التي يفيدها الحاج من حجّه لبيت الله الحرام أهميّةَ التوسّط والاعتدال في الأمور كلّها، ومجانبة الغلو والجفاء أو الإفراط والتفريط، كما قال الله تعالى في شأن هذه الأمة: ﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهدآء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة ١٤٣]، والمراد بقوله سبحانه: ﴿أمّة وسطاً﴾ أي شهوداً عدولاً، لا يميلون عن الحق، لا إلى غلو، ولا إلى جفاء، بل يتوسّطون ويعتدلون، والحج مليء بالمواقف العظيمة والعِبر الجليلة التي ترشد إلى أهمية التوسّط، وتدلّ على أهمية الاعتدال، ومن أهمِّ هذه المواقف في هذا الباب العظيم النظرُ في هدي النبيِّ ﷺ وسنّته في رمي الجمار على ضوء ما ثبت عنه ﷺ، ثمَّ النظرُ بعد ذلك إلى أحوال الناس مع سنّته، فإنَّ حالهم في

ذلك بين غلوٍّ وجفاء، وإفراط وتفريط، إلاَّ من وفّقهم الله وأكرمهم بلزوم سنّته ومتابعة هديه واقتفاء أثره ﷺ.

روى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: « الْقط لي حصى، فلقطت له سبع حصيات من حصى الخذف، فجعل ينفضهنّ في كفّه، ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، ثم قال: أيّها الناس إيّاكم والغلوَّ في الدين، فإنّما أهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدين »[1]، وإسناده صحيح على شرط مسلم كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]، وغيره من أهل العلم.

فقوله ﷺ في الحديث: « أمثال هؤلاء فارموا »، أي

---

(١) المسند (١/٢١٥)، وسنن النسائي (٥/٢٦٨)، وسنن ابن ماجه (رقم:٣٠٦٩).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/٢٩٣).

الحصيات التي التُقطت له بحجمها المحدّد في الحديث وهو حجم حصى الخذف، فاللفظ لا يتناول الحجم الصغير الذي لا يُسمى حصاة، كما لا يتناول الحجم الكبير الذي يُسمّى حجراً، فالمشروع هو التوسّط، ومع وضوح هذا الأمر وشدّة بيانه فإنّك إذا قارنت ذلك بحال بعض المسلمين ممّن جهلوا سنّة النبي ﷺ تجد منهم أمراً عجباً في هذا الباب بين غلوٍّ وجفاء وإفراطٍ وتفريطٍ وزيادة وتقصير، والحق قوام بين ذلك، فلا يقصُر المسلم عن سنته ﷺ شأن أهل التفريط والجفاء، ولا يزيد عليها شأن أهل الإفراط والغلوّ، وإنّما يكون عدلاً وسطاً.

وقوله ﷺ: « إيّاكم والغلوّ » عام في جميع أنواع الغلوّ في الاعتقادات والأعمال؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالمسلم منهيٌّ عن الغلوّ في كلِّ أحواله ممنوع منه في كلِّ شؤونه، مأمور باقتفاء آثار الرسول الكريم ﷺ واتّباع سنته في الأحوال كلّها.

إنَّ الشيطان حريص تمام الحرص على عبد الله المؤمن

ليصرفه عن الجادة وليبعده عن صراط الله المستقيم إمّا إلى غلوّ أو إلى جفاء ولا يبالي بأيٍّ الأمر ظفر كما قال بعض السلف: « ما أمر الله تعالى بأمر إلاّ وللشيطان فيه نزغتان إمّا إلى تفريط وتقصير، وإمّا إلى مجاوزة وغلوّ ولا يبالي بأيِّهما ظفر »، وهو قاعدٌ للمسلم بأطرقه لا يفترُّ ولا يملُّ من الكيد له والتربّص به واستفراغِ كامل الوُسْع لإضلاله وصرفه عن الصراط المستقيم والهدي المستبين.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه العظيم إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: « ومن كيده ـ أي الشيطان أعاذنا الله وإيّاكم منه ـ أنّه يشامُّ النفس حتى يعلم أيَّ القوتين تغلب عليها قوّةُ الإقدام والشجاعة، أم الانكفافُ والإحجامُ والمهانةُ، فإن رأى الغالب على النفس المهانةَ والإحجامَ أخذ في تثبيطه وإضعاف همّته وإرادته عن المأمور به وثقله عليه فهوَّن عليه تركه حتى يتركه جملةً أو يقصّر فيه ويتهاون، وإن رأى الغالب عليه قوّةَ الإقدام وعلوَّ الهمَّة أخذ يقلّل عنده المأمورَ ويوهمه أنَّه لا يكفيه

وأنَّه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة، فيقصُرُ بالأوّل ويتجاوز بالثاني ... وقد اقتطع أكثرُ الناس إلاّ أقلَّ القليل في هذين الواديين وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدّي، والقليلُ منهم جداً الثابتُ على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ... »[1].

ثم أطال رحمه الله بضرب أمثلة كثيرة على ذلك في جوانب مختلفة من الدين، ينقسم فيها الناس إلى أقسام: أهل غلوٍّ، وأهل جفاء، وأهل توسط واعتدال.

إنَّ الاعتدال في الأمور كلِّها، والتوسّط فيها، والبعدَ عن الغلوِّ والجفاء هو المنهج القويم والصراط المستقيم الذي ينبغي أن يسلكه جميع المؤمنين كما أمرهم الله بذلك في كتابه، وكما أمرهم بذلك رسوله ﷺ، فالتوسّط حقًّا والاعتدال هو الأخذُ بالحدِّ الذي حدَّه الله لعباده بحيث لا يُدخلُ فيه ما ليس منه، ولا يُخرج منه ما

---

(١) إغاثة اللّهفان (١/١٣٦).

هو داخل فيه، فبهذا امتدح الله المؤمنين، وبهذا أمرهم، قال الله تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا﴾ [الفرقان ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ولا تجعل يدكَ مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلَّ البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ [الإسراء ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا﴾ [الإسراء ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ [الأعراف ٣١]، وقال تعالى: ﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك﴾ [لقمان ١٩].

وقد صحّ في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: « القصدَ القصدَ تبلُغُوا »[(١)]، أي: عليكم بالقصد من الأمور في الأقوال والأفعال، والقصدُ هو الوسط بين الطرفين، وصح عن النبي ﷺ أنَّه قال كما في المسند وغيره: « عليكم هدياً قاصداً، فإنَّه من يشادَّ الدّين يغلبُه »[(٢)]،

---

(١) صحيح البخاري (رقم:٦٤٦٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/٣٥٠، ٣٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم:٤٠٨٦).

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: « الاقتصاد في سنة خير من الاجتهاد في بدعة »[١].

فدينُ الله وَسَطٌ بين الغالي فيه والجافي عنه، وخيار الناس هم الوسط الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلوّ المعتدين، بل لزموا هدي سيِّدِ المرسلين وخيرةِ ربِّ العالمين وقدوةِ الناس أجمعين محمّدِ بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وفي الختام فهذه جملةٌ من الدروس المنتقاة والفوائد المختارة، والتي يفيدها المسلمون من حجِّهم لبيت الله الحرام، والحج كما تقدّم مليء بالدروس العظيمة والعِبر الرائعة والفوائد المؤثِّرة، إلاَّ أنَّ الناس في تحصيلها واكتسابها متفاوتون بحسب ما تعي قلوبُهم من ذلك، فهناك قلبٌ كبيرٌ يسع علماً عظيماً، كوادٍ كبيرٍ

---

(١) رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد (١/٨٨).

يسع ماءً كثيراً، وقلبٌ صغيرٌ، كوادٍ صغيرٍ يسع علماً قليلاً، وقلبٌ لاهٍ غافل غمرته الغفلةُ، فلم يجد العلمُ مكاناً فيه، والتوفيق بيد الله وحده، فنسأله أن يمنَّ علينا جميعاً بالعلم النافع والعمل الصالح، وأن يعمرَ قلوبَنا بطاعته، إنَّه سبحانه سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونِعم الوكيل.



فهرس المصادر والمراجع

• الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لابن بَلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة (١٤١٤هـ).

• أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.

• إغاثة اللّهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى بابي الحلبي.

• اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية، تحقيق: د ـ ناصر بن عبد الكريم العقل، مكتبة الرشد، الثانية (١٤١١هـ).

• تفسير عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: د ـ مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الأولى (١٤١٠هـ).

• تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، طبعة دار الشعب.

• التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر، مطبعة فضالة المحمدية (١٣٨٧هـ).

• تهذيب السنن، لابن القيم، بهامش مختصر سنن أبي داود للمنذري، تحقيق: حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية.

• تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي، تحقيق: د. بشار عواد، مؤسسة الرسالة، الخامسة (١٤١٣هـ).

• تيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، المكتب الإسلامي، بيروت، الثالثة (١٣٩٧هـ).

• جامع البيان، لابن جرير الطبري، دار الفكر (١٤٠٥هـ).

• الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى (١٤٠٣هـ).

• الحج، فضله وفوائده، للوالد الكريم الشيخ عبد المحسن العباد البدر، ضمن (قبس من هدي الإسلام)، مطابع الرشيد.

• حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم، دار الفكر.

• الدر المنثور، للسيوطي، دار الفكر، الأولى (١٤٠٣هـ).

• زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الثالثة (١٤٠٢هـ).

• الزهد، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: محمد زغلول، دار الكتاب العربي، بيروت، الأولى (١٤٠٦هـ).

• سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ الألباني، ط مكتبة المعارف الرياض، المجلد الثالث الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ)، والرابع الطبعة الرابعة (١٤٠٨هـ).

• سلسلة الأحاديث الضعيفة، للشيخ الألباني، ط مكتبة المعارف الرياض، المجلد الثاني، الرابعة (١٤٠٧هـ).

• السنن، لأبي داود، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، دار الحديث (حمص - سورية).

• السنن، لابن ماجه، تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية (بيروت).

• السنن، للترمذي، دار الكتب العلمية (بيروت) (١٤٠٨هـ).

• السنن، للنسائي، ط دار الريان.

• السنن الكبرى، للنسائي، تحقيق: د ـ عبد الغفّار البنداري، وسيد كسروي، دار الكتب العلمية (بيروت)، (١٤١١هـ).

• شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للحافظ اللالكائي، تحقيق: أحمد سعد حمدان، ط دار طيبة.

• شرح الصدور بتحريم رفع القبور، للشوكاني، ضمن الجامع الفريد، طُبع على نفقة محمد ابن إبراهيم النعمان.

• صحيح البخاري، للإمام البخاري، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى (١٤١٢هـ).

• صحيح ابن خزيمة، لابن خزيمة، تحقيق: د ـ محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي (بيروت).

• صحيح الجامع الصغير، للشيخ الألباني، المكتب الإسلامي، الثانية، (١٤٠٦هـ).

• صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الحديث.

• فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، دار المعرفة، بيروت.

• فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني، دار الفكر.

• الفوائد، لابن القيم، تحقيق: بشر محمد عيون، نشر مكتبة البيان، الأولى (١٤٠٧هـ).

• مجلس في فضل عرفة وما يتعلّق به، لابن ناصر الدين الدمشقي، دار القبلة، الأولى (١٤١٣هـ).

• المجموع شرح المهذب، للنووي، تحقيق محمد نجيب المطيعي، المكتبة العالمية بالفجالة.

• مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مكتبة المعارف، الرباط.

• المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية.

• المسند، للإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي (بيروت)، (١٤٠٥هـ).

• المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي (بيروت).

• المغني، لابن قدامة، تحقيق: د ـ عبد الله التركي، ود ـ عبد الفتاح محمد الحلو، طبع دار الهجرة للطباعة على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير تركي بن عبد العزيز آل سعود.



فهرس الموضوعات